

- الأمبرياليّة وإبادة الإنسان
- الثورة والثقافة في مؤتمر هافانا
- التيارات العربيّة والعالميّة

المعرفة

بدمشق

مجلّة ثقافيّة شهريّة

آذار ١٩٦٨

السّنة السّابعة العدد ٧٣

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي

السنة السابعة

رئيس التحرير

العدد الثالث والسبعون

أديب اللجمي

المعرفة

السنة السابعة دمشق

العدد الثالث والسبعون – آذار ١٩٦٨

اعلان هام

الى السادة المشتركين في المجلة

قررت ادارة مجلة « المعرفة » أن توزع هديتها على المشتركين اعتباراً من شهر آذار (مارس) ولغاية شهر حزيران (يونيو) ١٩٦٨ . والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري .

وتضع المجلة امام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب، نشرت في سنتي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، ليختار المشترك منها كتاباً نقوم بارساله اليه فوراً . ونرجو ان يتفضل المشترك باعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن، وأن يبين لنا العنوان الذي يرغب في أن نرسل اليه الكتاب الهدية :

نهب العالم الثالث	بيير جاله – ترجمة ومراجعة يوسف شقرا واديب اللجمي
اسرائيل واقع استعماري	مكسيم رودنسون – ترجمة احسان الحصني مراجعة انطون المقدسي
الحركة النقابية في العالم	جورج لوفران – ترجمة مهاة فرح الخوري مراجعة انطون حمصي
مناهضة الثورة في افريقيا	جان زجلر – ترجمة مارسيل عبسي – مراجعة اديب اللجمي
سوسيولوجيا افريقيا الحديثة	جان زجلر – ترجمة احمد القادري – مراجعة مها شرشر وانطون حمصي
أفريقيا والثورة	للرئيس أحمد سيكوتوري – ترجمة جماعة من الاختصاصين – مراجعة اديب اللجمي
من التخلف الى التطور الاشتراكي	الدكتور صلاح وزان
المادة والذاكرة	هنري برغسون – ترجمة اسعد عربي درقاوي مراجعة بديع الكسم
فيزياء عالم الصغائر	شولكين – ترجمة بسام معصراني – مراجعة مكي الحسني

ان هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة، الى ان يبادروا لتسجيل اشتراكهم فيها وارسال القيمة حوالة بريدية او شيكاً على احد المصارف المعتمدة، باسم محاسب مجلة المعرفة؛ وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم، فور تسجيل اشتراكهم.

الأمبريالية وإبادة الانسان

أديب اللجمي

يروى عن الرئيس الفرنسي شارل ديغول ، أنه صرح لبعض الخلّص من أصدقائه بما معناه « أنه لم يعد في عالمنا اليوم سوى دولة واحدة عملاقة ، هي الولايات المتحدة ، وأن سائر دول العالم قد أضحت متشابهة ، الى حد كبير ، من حيث المسافة التي تفصل بينها وبين الولايات المتحدة ، وأنّ هذه الدولة الأخيرة قد أخذت تهدد السلام العالمي بسبب اصرارها على أن تتحكم في مصائر الشعوب والدول ـ الصديقة والعدوة لها ، على حد سواء ـ ، وأن تصنع لهـا المستقبل الذي تريده . لذا فان الولايات المتحدة قد اصبحت دولة خطرة على الانسانية . »

ومن المؤكد ان هذا الرأي لا ينفرد به الرئيس ديغول وحده . فكل من تابع احداث البشرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ، يلاحظ ظاهرة تتدرج بصورة تدعو الى القلق الشديد : الولايات المتحدة الأمريكية تزداد قوة وهيمنة على الرأسمالية العالمية ، وبالتالي تفرض على الغرب كله سياسة إلحاق بها ؛ وهي في الوقت ذاته تحتكر لنفسها ، أكثر فأكثر ، حق مصادرة خيرات العالم وجهد شعوبه ، لحسابها وحدها ؛ وانسجاماً مع هذا الهدف ينبغي لها ان تحطم بالقوة كل حركة تحررية تقوم في مكان أو آخر من العالم وتستهدف رخاء الشعوب ورفع مستوى حياتها ، واستقلالها في ممارسة تقرير مصيرها بنفسها .

واذا كانت الأمبريالية العالمية في مطلع هذا القرن ، وبالضبط قبل الحرب العالمية الاولى ، قد تجلت في شراكة عدة دول استعمارية رأسمالية — دول أوروبا الغربية — مع الولايات المتحدة في « نهب » خيرات العالم ، والتحكم في استغلالها ومستوى أسعارها وتوزيعها ، وايقاف حركات الشعوب في طريق التقدم والتحرر ، فان مثل هذه الشراكة قد تفسخت بعد الحربين العالميتين ، وأصبح مجموع بلاد العالم تقريباً : البلاد الاشتراكية ، وبلاد العالم الثالث ، وبلاد اوروبا الغربية الرأسمالية — يواجه معاً تهديداً أمريكياً متزايداً ، واخذت الولايات المتحدة تحس بتحفظ الأصدقاء القدامى عنها ، وبالعزلة تزداد تطويقاً لها . فلم تجد وسيلة أخرى للخروج من هذه العزلة إلا باستعمال القوة المدمرة ؛ وانتقل عداؤها من عداء للدول الى عداء للشعوب ، ثم عداء للانسانية ؛ وما القنابل المبيدة ، وقنابل النابالم التي تنصب بالألوف كل يوم فوق مدن أبناء فيتنام ، تماماً كالقنابل التي تقذف بها طائرات اسرائيل ومدافعها فوق خيام النازحين ، سوى تعبير عن اتجاه

الأمبريالية العالمية ــ متمثلة في دولة الولايات المتحدة الامريكية، وسائر الدول التي تسير في أذيالهـــا ــ الى ابادة الانسان.

* * *

والواقع ان موقف الامبريالية الامير كية من عالم اليوم يختلف تماماً عن موقف أية دولة تدخل في حرب مع دولة اخرى ، كما كانت الحال في الماضي . ان الولايات المتحدة الامريكية لاتنشد كسب معارك وحروب في فيتنام ، بقدر ماتنشد إبادة شعب فيتنام وتحويل هذا البلد الى قــبر كبير . ان **نية الابادة** لاتقتصر ، في رؤوس حكام واشنطن ، على الجيش الفيتنامي وجبهـــة التحرير الوطنية، ومجموع الأنصار الذين يقاومون الغزو الامريكي ، **بل تشمل جميع معالم الحياة في فيتنام** : السكان ، والعمران ، والحيوان ، والنبات ، وكل مالمسته يد الانسان او عاش مع الانسان، يجب ان تدمره القنابل .

فالحرب التي تسلطها الولايات المتحدة الامريكية على فيتنـــام ، هي بالنتيجة ، وكما سنرى ، حرب على شعوب البشرية كلها، وهي حرب تتميز بطابع الكلية والشمول ، على حد تعبير ديديه Dédier رئيس « محكمة برتراند رسل » الذي يرى في هذا الطابع سمة المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ، إذ ان الواقع الراهن لم ينبثق بصورة عفوية ولا مفاجئة ، بل هو حصيلة تدرج بدأ مع هذا القرن .

فالتنافس بين الدول الصناعية على الأسواق الاقتصادية أثار العداء بينها ؛ كما ان نمو الصناعة ، وتقدم التكنولوجيا قد أذكى هذا التنافس . ونتج عن ذلك ان أخذت كل من هذه الدول تخترع وسائل إبادة اكبر فأكبر ، ثم أدى ذلك بالضرورة الى تسليط هذه الوسائل على المتحاربين والمدنيين معاً إذ لم يعد في مقدور

وسائل التدمير تلك أن تميز بين الخطوط الأمامية والخطوط الخلفية .

ثم تمضي الامور الى ماهو أدهى من ذلك . فليس المطلوب إلحاق الهزيمة بالجيوش المحاربة ، او برجال العصابات ، وحسب ، بل المطلوب هو تدمير اقتصاد البلد المحارب. لذا اصبحت المصانع والمعامل والحقول والمزارع أهدافاً عسكرية يجب توجيه الضربات اليها ودكّها ، مثلما يجب تدمير تجمعات الجنود والمدافع وسواها. ويتطلب هذا تعبئة اكبر عدد ممكن من المواطنين في حرب كهذه ؛ وهكذا تنزع الحرب اكثر فأكثر باتجاه الشمول : الشمول بالنسبة للمعتدي الذي يوجه كل طاقاته للعدوان ، والشمول بالنسبة للمعتدى عليه الذي يوجه كل طاقاته لإحباط العدوان .

ولم تنفرد الحربان العالميتان الاولى والثانية وحدهما بهذا الطابع التدميري الجماعي . فالشعوب التي عانت الاستعمار ، منذ القرن التاسع عشر ، تعرف الكثير عن هذا الاسلوب من الإبادة الشاملة ، تمارسه الدولة الاستعمارية «الفاتحة» على شعب أعزل آمن ، يكاد لايملك شيئاً من وسائل الدفاع ، ليذود بها نفسه . فالقوة العسكرية الاستعمارية إذ تدخل لتحتل البلد ، تلاقي مقاومة شعبية ، وهذه المقاومة هي ذريعة الفاتح يفيد منها لينطلق كالوحش الهائج ،فيقتل السكان دون تمييز ، ويهدم البيوت فوق أهلها ، ويبيد الزرع ويحول كل خضرة الى هشيم. ان ماينبغي الحصول عليه هو استسلام الشعب المستعمَر ،بلا قيد ولا شرط . ففي أيام قلائل من سنة ١٩٤٦ قتل المستعمرون الفرنسيون في منطقة سطيف من الجزائر سبعين ألف جزائري . لماذا ؟ ليجعلوا منهم عبرة لجميع بلاد المغرب العربي: تونس، الجزائر ، المغرب الاقصى ، ولكل شعب في افريقيا تسول له نفسه ان يقارع

الاستعمار والاغتصاب ؛ إذ لا يجوز لشعب ان يطالب بسيادته على أرضه ومستقبله، ولا يجوز لشعب ان يبحث موضوع التحرر أصلاً.

* * *

بدأت إبادة الانسان بصورة جماعية مع الاستعمار. ورغم ذلك لم يتمكن الاستعمار من اسكات صوت الحرية. وتعاقبت الثورات الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية في آسيا وافريقيا. واتسمت بطابعها الشعبي الشامل، إذ كان لابد - والهدف هو طرد المستعمر من الارض - أن يحشد الشعب جميع طاقاته ويوجهها للمعركة الحاسمة. وقام مفهوم جديد في ثورات التحرر، هو مفهوم **الحرب الشعبية**. وقد بدأته الصين، وحققت بفضله انتصاراً كاسحاً وحاسماً على خصوم الشعب وأعدائه، في الداخل والخارج. وكانت ظاهرة « الحرب الشعبية » جواباً لابد منه لمواجهة الاسلحة الجديدة التي اخترعتها الامبريالية (الاسلحة النووية، الصواريخ) وهي اسلحة تتصف بقدرتها التدميرية الجماعية الرهيبة. لم تعد الاسلحة التقليدية تجدي امام اصرار الشعوب على التحرر. ولم يعد المستعمر يواجه ثواراً منعزلين فوق الجبال، بل اصبح الشعب كله جهازاً حياً مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالثائرين، يعمل معهم وفق المخطط الذي تضعه الثورة. هكذا اصبح جميع السكان، بالنسبة للاستعماريين، أناساً مشبوهين، اي ثواراً. فلابد اذن، لبقاء الاستعمار، من تصفية جميع السكان، وابادتهم. وكل الوسائل التي تؤدي الى هذه النتيجة مشروعة بل ضرورية: التعذيب، الاعتقال، التهجير، احراق القرى والبيوت بمن فيها من سكان، ضرب المدن ومناطق العمران بالقنابل المدمرة، واحراق الناس بقنابل النابالم. لافرق في ذلك بين الاطفال والرجال والشيوخ، بين الاصحاء والمرضى.

وازاء هذه البربرية التي تصم سلوك الاستعمار بحق الشعب الآمن ، يزداد حقد هذا الأخير على المستعمر ، كما تزداد عزيمته على مواصلة الكفاح التحرري . ولقد انتهت كثير من الثورات الى انتصار الحرية على الاستعمار .

الا ان الأمبريالية الأمريكية ، وقد رأت ما آل اليه مصير الغرب الاستعماري من انحسار ، أخذت تعتقد بانها هي المعقل الأخير للأمبريالية العالمية ، وان انهيارها هو النهاية الأخيرة لعصور التسلط والاستغلال ؛ فلا بد لها إذن من ان تدافع عن مواقعها وأن تتلمس سبيلاً جديداً لاحباط الثورة الشعبية في العالم . ويكون ذلك باتباع سبيل الإبادة الشاملة لكل معالم الحياة في البلد الذي يقاوم سلطانها . وتلك هي خطة الولايات المتحدة في حربها العدوانية ضد شعب فيتنام .

* * *

في أواخر شهر تشرين الاول من العام الماضي ، صرح الجنرال وستمورلاند قائد جيوش العدوان الامريكية على فيتنام ، بقوله : « اننا نحارب في فيتنام لكي نبين للناس أن حرب العصابات لا تجدي نفعاً . » وحرب العصابات في مفهوم وستمورلاند ، هي الحرب الشعبية التي يخوضها شعب فيتنام ليحرر ارضه من الغاصب الاجنبي ؛ اذ لم يخطر ببال فيتنام أن تعتدي على احد ، او ان تنال من حريات وحقوق جيرانها او غيرهم .

واذا علمنا ان المصالح المباشرة للولايات المتحدة في فيتنام ـ أعني الشركات والاستثمارات وما شابهها ـ هي ضعيفة جداً ، تأكد لنا أن عملية « التأديب » التي تمارسها الامبريالية الامريكية على شعب فيتنام انما هي درس غير مباشر لجميع شعوب آسيا بأن شيئاً مماثلاً ينتظرها إن هي فكرت في خوض حرب التحرير الشعبية ضد الامبريالية . من هنا يمكن القول إن فيتنام هي فداء جميع الشعوب

المناهضة للامبريالية ؛ ومن هنا يمكن القول ايضاً ان مطالبة الشهيد جيفارا بفتح جبهات عديدة (تماثل فيتنام) في وجه الامبريالية الامريكية ، انما هي مطالبة صحيحة جداً ؛ ومن هنا اخيراً ، يمكن فهم العــدوان الاسرائيلي ، عدوان الخامس من حزيران ، على الشعب العربي ، بأنه جزء من هذه الاستراتيجية الامبريالية ، التي تمارسها الولايات المتحدة ضد جميع الشعوب التي عزمت على ان تتحرر ، وتحرر ثرواتها وعرق أبنائها من قبضة الطغمات الاحتكارية ، وأن تقبر الاستعمار نهائياً والى الابد .

* * *

قد يدهش المرء حين يعلم ان الميزانية العسكرية الامريكية لهذه السنة قد بلغت حوالي ٨٠ مليار دولار . ان مثل هذا الرقم لم تصل اليه الولايات المتحــدة حتى ابان الحرب العالمية الثانية . ثمانون ملياراً من الدولارات تنفقها العسكرية الامير كية في صنع وسائل الإبادة والتدمير والفتك لتستعملها في فيتنام وفي أيّ مكان آخر من العالم يفكر في مقاومة الشيطان . ان هذه المليارات الثمانين هي بالضبط ما يحتاج اليه العالم الثالث ليحقق تنميته الاقتصادية والثقافيــة والاجتماعيــة . والعالم الثــالث محتاج الى مثل هذه المليارات ليؤمن بها طعاماً للجائعين ، ومأوى للمشردين ، وكتاباً للأميين ، ومستوصفاً للمرضى وذوي العاهات . والعالم الثالث محتاج الى مثل هذه المليارات ليحسن بها زراعته ، ويزيد من انتاج المواد الغذائية ، ويرفع من مستوى دخل الافراد ليعيشوا حياة انسانية معقولة ، تنتفي منهــا الفاقة والحقد . وكيف يستقر سلام في العالم مادام هناك مستغلون جشعون ، ومستَغَلون جائعون ؟ بل كيف نتصور زوال صراع الطبقات وتخلي الشعوب المحرومة عن هباتها وثوراتها ،

مادامت الامبريالية العالمية تنفق على وسائل تدمير الحياة والانسان ، مايحتاج اليه الانسان ذاته لتأمين حياة حرة كريمة له ؟

ان اكبر مفارقة يشهدها عالم اليوم هي ان الامبريالية العالمية ـ وقد تزعمها اليوم الولايات المتحدة ـ تنهب ثروات وخيرات شعوب العالم الثالث ، لتحولها الى قنابل وطائرات ومدافع ،تبيد بها شعوب العالم الثالث . ومايجري اليوم فوق ارض فيتنام انما هو حصيلة نهب لاحدود له تمارسه الولايات المتحدة واتباعها لبترول شعوب العالم ، والمواد الاولية التي تستخرجها الاحتكارات الامريكية وأعوانهامن باطن الارض في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، واختطاف العلماء والباحثين من جميع انحاء الارض والاتيان بهم الى الولايات المتحده نفسها والافادة من مختلف هذه الطاقات والقوى والثروات في صنع الصواريخ والقذائف المدمرة ، وطائرات الموت وسواها . هكذا اصبحت إبادة الانسان شعار البقاء للامبريالية العالمية ؛ وهكذا حلّت سياسة « إبادة العنصر البشري » محلّ سياسة التعاون والتضامن بين الشعوب ؛ وأصبح على الأمبريالية ان تعمل على اشاعة البؤس والشقاء بين البشر بدلاً من ان تعمل على مساعدتهم في جهودهم الرامية الى تحسين احوالهم . وكنتيجة لهذا التسلسل ، اصبحت القنابل التي تلقيها الولايات المتحدة على فيتنام ، لا تحمل الدمار وحسب ، بل وتحمل في الوقت ذاته أرهب انواع الحقد والشر . وبعد ذلك ... أيستغرب العالم المتحضر ، وتستهجن الولايات المتحدة الأمبريالية ألا يبقى في نفوس ابناء العالم الثالث تجاه الغرب الاستعماري سوى الكراهية العميقة ، والارادة المصممة على التحرر أو الموت ؟

لقد كانت الولايات المتحدة احدى الدول التي وقعت على وثيقة حق تقرير

المصير بالنسبة لجميع شعوب العالم . وبموجب هذا الحق لا يجوز لأية دولة ان تمارس ضغطاً على دولة أخرى لتحدّ من حرية افرادها في التصرف بشؤونهم كما يحلو لهم . ان هذا الحق الذي تعهدت الولايات المتحدة باحترامه ، تخرقه الولايات المتحدة نفسها كل يوم . فما من شك في ان اكثر الانقلابات والثورات المضادة والمؤامرات التي تحاك على بلاد العالم الثالث ، من الداخل والخارج معاً ، انما هي من صنع أمريكي مباشر ، او من صنع وسيط يعمل لحساب « رب العمل » الامريكي .

وقد يقال ان الولايات المتحدة قد بلغت القمة في التقنية ، والتصنيع ، وان الموارد التي تتمتع بها تفيد منها في تحقيق المزيد من تقدم العلم والتكنولوجيا واختراع الآلات والاجهزة ومختلف الوسائل التي تيسر الحياة للبشر . وقد يكون ذلك كله صحيحاً من وجهة نظر امريكية صرفة . ان العالم الثالث لم ينعم يوماً واحداً « بخيرات » امريكا الا ودفع ثمنها باضعاف ما تساوي . لقد دفع ثمنها وبالدرجة الأولى ، من حريته وكرامته ومستقبله . قد يحدث أن تقدم الولايات المتحدة جرارات وقاطرات ومصانع لبعض الشعوب على شكل هدية . ولكنّ الثمن أو البديل الذي يجب أن تقدمه هذه الشعوب هو أن تتنازل كلياً عن حقوقها في ادارة شؤونها أو التصرف بمقدراتها ، فتدفع الحرية والكرامة ثمناً للآلة والسلع الاستهلاكية . بئس التجارة . فاذا حدث أن قال شعب : لا ، في وجه السلطة الأمبريالية ، فقد تعرض للإبادة الجماعية .

لئن كان عالم اليوم محتاجاً الى الآلة والمصنع والتخطيط لتحقيق التنمية وزيادة الدخل ، فهو أحوج من هذا كله الى شيء من العدالة والإخاء . ان الشعوب المغبونة تبحث عن حريتها السليبة وكرامتها المغتصبة ، اكثر مما تبحث عن الرخاء والتقنية . لقد ظهر لها حتى الآن ، على الأقل ، ان الرخاء ، على الطريقة الغربية ،

يجب ان يكون مستورداً من الغرب وان يكون ثمة فقـــدان الهوية ، وبيع التراث . قصة فاوست مع الشيطان ، تتكرر من جديد . ليس ثمة من تكافؤ في التعاقد بين من يملك الكثير ومن لايملك حتى القليل . ان امبريالية القرن العشرين هي مكثف احتكارات رأسمالية وتقنية واستعمارية تمتد اكثر من قرنين الى الوراء . والثقل الذي ترزح فيه امبريالية اليوم فوق صدر الشعوب الخارجة من ظلام التخلف ، لا يحرر هذه الشعوب بل يزيد من تخلفها وتبعيتها ، فلا غرابة إذا كان رد الفعل على الامبريالية سلبياً كله ؛ ولا غرابة البتة في ألا تجد الامبريالية لنفسها شعباً واحداً صديقاً لها من بين شعوب العالم الثالث . إن حوالي ألفي مليون انسان يحرمون اليوم أنفسهم من ضروريات الحياة الاساسية ليعبئوا اقواهم في وجه الطغيان الامبريالي الذي يأبى عليهم أن يتمتعوا حتى بهذا القدر الهزيل من الخيرات التي يجنونها بعرق جباههم ، لقد ارتبط مفهوم الامبريالية بواقع « السلب » و« السرقة » ، ومن السذاجة ان يتصور احد إمكان قيـــام « تعايش سلمي » بين اللص وضحيته ، ان المشكلة التي تعاني منها انسانية اليوم هي وجود امبريالية تعتمد في فرض ذاتها وسلطانها على ما تنتجه من أسلحة فتاكة ، وليست المشكلة وجود شعوب متخلفة أو متأخرة عن « الركب » الحضـاري وفق المعايير التي وضعها الغرب . فهناك احتمال كبير في ان تجد الشعوب التي لم تدخل بعد عصر الصنـــاعة ، طريقاً أخرى للتطور غير الطريق التي سارت فيها أوروبا وامريكا الشمالية . وربما كان هذا هو الأمل في أن تجد الانسانية لنفسها فرجاً من هذا المأزق الذي زجتها فيه التكنولوجيا .

تلك هي إذن آخر مراحل التطور في أمبريالية اليوم .

ان مايجري في فيتنام اليوم يحمل دروساً كبيرة للعالم كله :

وأول هذه الدروس أن الأمبريالية العالمية قد أصبحت ، أكثر من أي

وقت مضى ، عبئاً على الانسانية ، بل عبئاً على الشعب الذي تنمو فيه .. ان البؤس النفسي والأخلاقي لشعب الولايات المتحدة ليس ، في جوهر الأمر ، أقل من البؤس المادي لبعض الشعوب الجائعة . فلم تكن الأمبريالية خيراً على أي شعب من الشعوب ، لأنها احتكار القلة ، تستغل الكثرة . وأبناء الولايات المتحدة أنفسهم تستغلهم أمبرياليتهم مثلما تستغل الشعوب الأخرى .

وثاني هذه الدروس أن الأمبريالية العالمية قد أصبحت خطراً على بقاء الانسان والحياة ذاتها فوق سطح الأرض ، إذ أن الجهود الهائلة التي تصرفها في سبيل المزيد من اختراع أسلحة الفتك والإبادة الجماعية هي أكبر بكثير من جميع الجهود التي تبذلها في سبيل البناء والتعمير والسلام . ان الولايات المتحدة تضنّ في انفاق بضع مئات من ملايين الدولارات لتحسين حال الزنوج الأمريكيين ، ولكنها لا تبخل في انفاق ثمانين مليار دولار على المجهود الحربي ، وهو مبلغ ، كما قلنا ، يكفي لتحقيق خطة التنمية الاقتصادية لشعوب العالم الثالث طوال سنة ، ولزيادة الدخل القومي لديها في حدود ٥و٧٪ .

وثالث هذه الدروس أن تصفية الأمبريالية وشرورها من العالم وتحقيق السلام بين الشعوب ، تتطلب أول ما تتطلب وحدة العمل لدى جميع شعوب العالم الثالث وشعوب البلاد الاشتراكية . فالخطر الأمبريالي لم يعد يقتصر على المتضررين مباشرة منه ، بل هو شامل للجميع . وكل تضامن في مواجهة الامبريالية هو قوة جديدة تضاف الى حرية الشعوب ، وهو في الوقت ذاته عزل للامبريالية وخنق لها .

ان أكبر ورقة تلعب بها الامبريالية في حربها الترويعية ضد الشعوب الضعيفة ، هي التفكك الذي تعانيه هذه الشعوب .. ان مشكلات الشعوب

التواقة الى التحرر واحدة؛ وأسباب هذه المشكلات واحدة؛ كما أن العمل على حلها يتطلب توحيد الجهود. وقد آن للعالم الثالث أن يدرك هذه البديهية وأن يتخلص نهائياً من صراعاته الداخلية على قضايا تعتبر تافهة اذا قيست بالقضية الكبرى: قضية ابادة الامبريالية بدلاً من أن تبيد هذه الانسان.

فهل تعي الشعوب هذه الدروس؟ وهل نشهد قريباً ميلاد عمل تحرري من نوع جديد؟

الثورة والثقافة

في مؤتمــر هافانا

انطون المقدسي

اقرب الى الخيال الملحمي منه الى الواقع ، كان « مؤتمر هافانا لمثقفي العالم اجمع » فما شهدنا ولم نسمع بمحفــل فكري كهذا ، اشترك في بحوثه ومناقشاته مايقرب من خمسمائة مفكر وشاعر وعالم وفنان من سبعين بلداً ، استمع اليهم بصمت المتأمل عشرات الصحفيين والمثقفين ، وكلهم على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم وتقاليدهم وفلسفاتهم في حركة واحدة تشق طريق الثورة لأكثر من نصف البشرية ، وبالتالي للانسان .

جزيرة صغيرة كراحة الكف اذا قيست بفسحة العـالم الكبير ، تحاصرها من كل الجهات اكبر قوة حربية وتقنية عرفها تاريخ الانسان : تلك هي « كوبا » . ومع ذلك فهي تريد ان تعمل ، وتعمل فعلاً ، لا لذاتها ، بل للانسان اين وأنى كان .

جزيرة اللهو لمترفي العالم تتحول الى قلعة للثورة العالمية ... ومع ذلك فقد كانت كاملة الحرية في ابداء الرأي ، اعلنهـا رئيس الجمهورية في خطابه الافتتاحي . واكد عليها برنامج وُزع على المؤتمرين : « ليس بينكم من يمثل بلداً او حزباً او منظمة او اقليماً . كل منكم يتكلم باسمه الخاص ، ويعبر عن وجهة نظره في الموضوعات المطروحة على بساط البحث » .

هذه الحرية — الحرية تجاه الافكار والايديولوجيات — الحرية التي تبدع أطراً جديدة لاوضاع جديدة — لايفهمها ولا يمارسهـا الا الفنان . والانسان في كوبا فنان بطبيعته ، على مايبدو . فمدينة « هافانا » قطعة شعرية والشعب هناك - وضمن الحاجز الحديدي الذي احاطه به الاستعمار - مايزال يحتفظ بعفوية الفنان . فهو يرقص ويغني وينشد ويرسم ويبني في معمار اصيل فسحته العالم الانساني الرحب . فقد انشأ للمؤتمرين معرضاً تخطى بجرأته بيكاسو والتجريديين ؛ يرقص ليلاً نهاراً على موسيقا الكترونية تبرز من اسرار العـالم الثالث بمقدار ماتخفي ، وتدل بنسبة ماتعبِّر .

ولم تقلّ مهرجانات « هافانا » الفنية عن مهرجاناتها الخطابية والفكرية ، دقة وتلوناً وخيالاً .

كثيرة هي الثورات في العالم الآن ... ولكن أكثرها نضارة وشباباً

وحيوية ... أكثرها تحرراً هي ثورة « فيدل كاسترو » و « تشي غيفارا » لأنها ضمّت ، الى صرامتها الثورية ، عفوية الفنان المبدع .

تباشير ثورة المستقبل

قد يظن المرء لاول وهلة ان المؤتمر كان تظاهرة ضد الامبريالية الاميركية .

وقد يرى فيه محاولة « طريفة » لفك الحصار — على الاقل في جانبه الثقافي — عن « الجزيرة » .

ولكن مؤتمراً من هذا القياس لايمكن تحديده بوجه سلبي قلما ظهر فيه .

وانما كان محاولة جريئـــة لسبر اغوار الثورة ... محاولة لتخطي « السكولستيكية » الثورية ، ولشق طرق جديدة امام عالم اصبح شعاره « الثورة والثقافة » .

ظن الصحفيون والسياسيون ان اهم لجان المؤتمر واكثرها خطورة هي اللجنة الاولى : « الثقافة والاستقلال القومي »، لانها عالجت مشكلة الاستعمار والاستعمار الجديد في علاقتهما مع الاستقلال القومي، اي مشكلة الثقافة في ابعادها السياسية . والواقع ان لجان المؤتمر الخمس كانت بمستوى واحد من الأهمية . فالثالثة بحثت مسألة (المثقف في البلدان المتخلفة والمثقف في البلدان المصنعة) . والرابعة مسألة (الثقافة ووسائل الاعلام) او (الاتصال بالجماهير Mass Media) والخامسة مسألة (الابداع الفني والعلمي والتقني) . وفي كل اللجان عولجت مسألة التحرر القومي والانساني على انها ، وبآن واحد ، اصالة وابداع وتربية . ولكن المؤتمر لم يتجاوز الحدود المرسومة له الا في اللجنة الثانية (الانسان الجديد) او (الانسان الكامل) ، اذ لم يقتصر فيها المؤتمرون على امريكا اللاتينية

وآسيا وافريقيا ، كما كان مقرراً ، بل ضموا اليها القارة الرابعة واصبح بذلك المؤتمر **انسانياً** يعالج مشكلة الانسان بما هو انسان ، في محاولة شاملة لتحقيق العدالة الكلية .

فكل انسان : المستعمِر والمستعمَر ، البورجوازي والعامل ، ابن العالم الاول (على حد تعبير دافيد كوبير – بريطانيا –) وابن العالم الثالث ، ابن المدينة وابن الريف ، الرجل والمرأة ... كل يشكو من « الضياع » . ضياع انسانيته ضمن عالم احتكرت فيه الامبريالية التقنية ، وقد تكون في طريقها الى احتكار « الايديولوجيات » . احتكرت رأس المال الفكري كما احتكرت البورجوازية السابقة رأس المال النقدي ... ولكن في الانسان فائضاً او « رصيداً » مايزال بكراً ، هو الذي يجب على الثوريين ان يزجوه في المعركة خلال السنوات القليلة المقبلة حتى يتحقق « الانسان الجديد » .

في هذا النصف الثاني من القرن العشرين ، ولاول مرة في تاريخ الانسانية يصبح المثقف عاملاً ، والعامل مثقفاً ، وتصبح « المدينة الفاضلة » مطلباً جماهيرياً . جمهورية افلاطون ؟ ولم لا ! . الزمان والمكان يتغيران باستمرار ، وتبقى « العدالة الكلية » الهدف الرئيسي لكل نشاط اجتماعي . ولقد ادهش المؤتمرين (حيث لا دهشة) المفكر الماركسي كوستاس اكسيلوس Kostas Axilos (السوربون – باريس) عندما ردد قول كارل ماركس : المادية نصف الفلسفة ... والمثالية نصفها الآخر ، وليس المطلوب ضمها في تأليف جديد ، وانما تخطي الفلسفة على حد تعبير ماركس ايضاً ، او ، على شكل اكثر تواضعاً ، انشاء « ماركسية القرن العشرين » على حد تعبير المفكر الماركسي الآخر روجي غارودي Ruges Garaudy ، اي وضع نظرية للثورة وللتنظيم الاجتماعي تتلاءم مع الاوضاع العلمية والتقنية والاقتصادية في عصر « السيبرنتيك » .

ولا عجب ، فالعمل الانساني نظر ، والثورة نظر . وكلما اتسعت الرؤية جال خيال الانسان في ابعاد المستقبل وفكره في آفاق الممكن، فأصبحت « الطوبائية » اكثر واقعية من الواقع .

بين الانفتاح الثوري والانغلاق العقائدي

مهما كانت النظرية ثورية فهي تتحول مع الزمن الى أطر ، وتتوضع في مفاهيم سرعان ماتصبح مؤسسات روتينية تشل العمل الثوري . ولا بد عندئذ للانسان الثوري من ان يفجر في ذاته وفي مجتمعه القدرة الثورية في نقائها البكر وفي عفويتها المبدعة .

وهذا ما لاحظه مؤتمرون من آفاق مختلفة . فبينما تحدث البعض ، كل منهم ، عن الانجازات الثورية في بلده (وكلها هامة وحاسمة) ، تحدث البعض الآخر عن الركود الثوري في الشرق والغرب، في العالم الثالث وفي العالم المصنع . فالأحزاب الثورية تصبح اليوم مؤسسات حكومية بـيروقراطية ، وكذلك المنظمات العمالية والفلاحية والاتحادات . فالبروليتارية في البلدان الرأسمالية مثلاً لم تعد النقيض الدياليكتيكي للبورجوازية يقوضها من الداخل ويطورها ، بل هي جزء متمم لها ينعم بخيراتها ، لا بل ان المعاني الثورية — كالنقد والنقد الذاتي — اصبحت وظيفة يمارسها الثوري كما يمارس الانسان العادي اي وظيفة أخرى من وظائفه . فلها تقاليدها واعرافها ومصطلحاتها : وطريقة توسيعها تبدأ وتنتهي على شكل حُدد سياقه مسبقاً .

ولقدعبر عن هذه الظاهرة، شعرياً الرسام التشيلي المعروف روبرتو متّى، في اللجنة الثانية فقال ما خلاصته :

« ليس الفن ترفاً . انه حــاجــة . انه امنية ، امنية اللا موجود والوسيلة لتحقيق هـذه الامنية . الثورة شعر ، والانسان الكامل شاعر . وأقصد بالشعر المزيد من الواقع ، من النور ، من الشعور ، من الخيال ، خيال الشعب المبدع . الشعر سلاح لا مرئي « حرب عصابات » داخلية ، في النفس ، على الاعراف ، والمصالح الذاتيـــة المصطنعة ، والرياء في النقد الذاتي ، حرب على الافكار الاتفاقية المبتذلة .. في سبيل الذكاء المبدع .. »

فصفقت له القاعة وقوفاً

كما دلل على ذات الفكرة في اللجنة الخامسة جان بيير فاي (السوربون - باريس) اذ ميز بأمثلة تاريخية بين المنظمة المغلقة التي تتحول الى فاشية والمنظمة المفتوحة التي تؤدي وحدها الى ثورة اشتراكية . كما ميز بين القول الذي يترجم الواقع والقول الذي يتحول الى عمل ، وهو القول الشعري (بالمعنى الاغريقي للكلمة ، اي خلق) . « هناك رابطـــة عجيبة بين النظرية الثورية واللغة الشعرية ، رابطة تبدو ، في المجال العلمي ، بين الشكلي والعملي ، وهـذا ما لا تفهمه الا الجماعة الثورية التي تشطر التاريخ لتستعيده . وفي هذا الفاصل — فيه وحده — يتم العمل الثوري اذ فيه تتحقق الحرية . والجماعة لا تكون ثورية الا اذا كانت هناك حركة بحرية تامة تمكنها من الانفتاح على اللا محدود »

الشغيلة المثقفون لا المنظمات

ولهـــذا أدان فيدل كاسترو في الخطاب السياسي الذي ختم به المؤتمر (وبعد ان قرأ كل وقائعه) أدان المنظمات — لا هذه ولا تلك — كما قال ، فنحن لا نشير الى أحد ولا نغمز من جانب أحد . ولكن الثورة لا يمكنها اليوم أن

تواصل مسيرتها المظفرة الا اذا انشأ الشغيلة المثقفون (على حد تعبيره) وفي كل بقعة من بقاع العالم بؤراً ثورية، تكون كل منها بمثابة نقطة انطلاق جديدة تلتقي مع غيرها في مجابهة الامبريالية والقضاء عليها . لقد وقعت في عالمنا احداث خطيرة دامية ، منها استشهاد ارنستو شي غيفارا ومحاكمة ريجيس دوبري ، ومنها أزمة تشرين الاول ١٩٦٢ وتمرد الزنوج في امريكا ، ومنها وفي طليعتها ابادة الانسان في فيتنام . فكان رد فعل المنظمات عليها « رسمياً » بينما وقف منها الشغيلة المثقفون وحدهم موقفاً كان حقاً ثورياً . وهكذا تباعدت الشقة بين الافكار والوقائع فأصبحت الطليعة مؤخرة والمؤخرة طليعة . وفي هذا المؤتمر بالذات كهنة كاثوليك اعلنوا ، بالرغم من الفاصل الذي يباعد بينهم وبين الماركسية ، عن تبنيهم الماركسية أداة علمية لتحليل الواقع الامبريالي وطريقة للعمل الثوري الجماهيري ، كما اعلنوا عن تضامنهم مع العالم الثالث ومع كوبا في ثورتها ضد الامبريالية اذ ان هذه تنزع عن الانسان انسانيته . ودللوا على قولهم باستشهاد الكاهن كميليو توريس رستوبو مقاتلاً مع الثوار . تلك هي مفارقة التاريخ : ان يصبح قطاع من الكنيسة قوة ثورية ، أفنقبل أن تصبح الماركسية كنيسة ؟.. ولكن الماركسية ليست بالنسبة الينا عقيدة ، والعقيدة هي أبعد شيء عن الماركسية .

واذا كان المثقفون ، على تعدد مذاهبهم الفلسفية ، قد التقوا ، وكل منهم يتكلم باسمه الخاص ، في مؤتمر هافانا ، وكان لقاؤهم خصباً ، فلأن شعوراً عاماً ينمو في العالم كله ويتسع ، شعوراً بأخطر مشكلة يواجهها الانسان اليوم ، ألا وهي تركز الامبريالية في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اخذت تهدد الدول والقارات بغزو استعماري لا مثيل له في التاريخ وتهدد ذاتها بالتمزق الداخلي ؛

وشعوراً منهم ايضاً بأن الحاجة الى اقامة العدالة للجميع اصبحت مسألة حياة او موت بالنسبة للعالم كله بما فيه اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ذاتها .

ان احتكار العلم والتقنية الذي تمارسه الولايات المتحدة الاميركية ، ان النزيف التقني الذي تمتص بواسطته العقول ، ان احتكار براءات الابداع وبيعها لشركات العالم، وبكلمة مختصرة فان نهب العالم هو ما يجعل من الامبريالية العدو الكلي والشامل للجنس البشري .

وكأن فيدل كاسترو ، بعد تحليله هذا للوضع العالمي ولنتائج مؤتمر هافانا ، وضع مقدرات الثورة العالمية امانة في عنق الشغيلة المثقفين ، وضرب لهم مثلاً يُحتذى في حياة واستشهاد ارنستو تشي غيفارا .

الثورة والثورة المضادة

ليس الاستعمار على نوعين فحسب – قديم وجديد – وانما هو على أنواع، كالشر يتلون بلون الخير ليقوضه من الداخل . واذا كان قد فرض في الماضي ثقافته ، كما قالَ قدور محمصجي (الجزائر) على أنها النموذج الأمثل لتحل في مغرب العرب محل الثقافة العربية ، فهو الآن ينشىء في الشرق العربي ثورة زائفة تناهض الثورة العربية لتشل حركتها الصاعدة .

ان منحنى التطور للفكر العربي في المرحلة التاريخية الراهنة ، يدل على أنه يتجه تدريجياً نحو اقامة مجتمع مصنّع اشتراكي ، موحد سلمي ، ديمقراطي حديث ، قوامه المنظمات الشعبية ضمانة للحرية والعدالة . ويعارض الاستعمار هذا الاتجاه التقدمي باتجاه رجعي صميماً ، اذ ينشىء في قلب الوطن العربي ، دولة حربية توسعية فاشية ، دولة مصطنعة تزيف الدين وتستند الى حق إلهي مزعوم في

الأرض المقدسة ... تلك هي اسرائيل ... نموذج الثورة المضـادة ، ويزيد في خطرها انها قُدمت للعالم في الشرق والغرب مثلا أعلى، على العرب أن يحتذوه !.

ان دولة العرب حديثة ، لا لأنها تتنكر للماضي بل لانها تستعيده انطلاقاً من المستقبل أي من اهداف المرحلة التاريخية الراهنة في العدالة الكلية . وهي علمانية ، لا لأنها تتنكر للقيم الدينية والروحية ، بل لانها تضع على عاتق الانسان مسؤولية الاهداف التي يختار لذاته ولمجتمعه . وموحدة (من الخليج الى المحيط) لالأنها ، كما ترجمت كلمة (عروبة) بـ (arabisme) و (Panarabisme) مذهب في التوسع ، بل لأنها تعبر عن الوجود العربي حقيقة تاريخية وثقافية وطبيعية ، يجب ان تتحول الى حقيقة سياسية .

مرت الثورة العربية بمرحلتين : الاولى مرحـلة التحرر القومي من الاستعمار السياسي ، لعبت فيها البورجوازية دوراً اساسياً . الثانية ،مرحلة التحرر الاقتصادي والشعبي ، تقوم بها الآن جماهير شعبية اخذت تمارس تدريجياً حقوقها السياسية . ولعب في المرحلتين مثقفون انبثقوا من الطبقات الشعبية دوراً قيادياً حاسماً فأصبحوا بمثابة طبقة ، طبقة مرحلية عليها الآن ان تتنازل عن حقوقها كما قال مولود معمّري (الجزائر) لتتحد مع جماهير الشعب في حركة تنقل الثورة العربية الى مرحلتها الثالثة، مرحلة التحرر الكامل .

وتتعرض ثورة العرب لاخطار ثلاثة تتعرض لها كل ثورات العالم الثالث الآن على مايبدو : انعزال الطبقة المثقفة عن الشعب ـ التعـارض بين القديم والجديد ـ تحويل الاشتراكية الى عقيدة مغلقة . وليس للعرب كما ليس لغيرهم من طريق لتذليل هذه العقبات سوى الرجوع الى الشعب مصدر الاصالة والثورة والابداع .

لم يختر العرب العنف ، وليست الثورة في نظرهم عنيفـــة بالضرورة ، ولكن العنف فُرض عليهم فاختاروا حرب التحرير الشعبية طريقة لانشاء الانسان الجديد . وهم يتمنون لو ان طريقهم اليه كانت ، لا العنـف الدامي ، بل عنف العدالة والمحبة . وسيكون لنا ولغيرنا ذلك اذا اردناه بارادة حقيقية .

هذه خلاصة القضايا التي دافعنا عنها في المؤتمر ، وقدمناها في بحث مكثف تلاه الوفد السوري امام اللجنة الثانية ، لجنة الانسان الجديد .

على مشارف عالم جديد

ان المعطيات الاقتصادية والاجتماعية ،العلمية والتقنية ،الثقافية والفكرية تتبدل في عالمنا وعلى مرأى ومشهد منا ،بسرعة يعجز العقل عن اللحاق بها ، حتى لتبدو المفاهيم بالقياس للاحداث متخلفة ، ولكأن الايديولوجيات أطر تحتفظ بهويتها اللفظية بينما ينفلت منها الواقع باستمرار . فالجديد سرعان مايصبح قديماً، وكأنه ، في احسن التقديرات ، من القرن الفائت . واذا فرضنا ان انساناً غادر قطرنا العربي السوري منذ عشرين سنة وعاد اليه الآن ، متناسياً الاشخاص ، ليستقرىء الحوادث وحدها ، فهو يجد نفسه امام مجتمـــع ، على عمق جذوره التاريخية ، جديد ومتجدد ، ما ان يقيم وضعاً حتى يشعر بالحاجة الى تبديله .

وكذلك الاستعمار ،والاستعمار الجديد، والامبريالية، فهي اوضاع تتطور وان كان تطورها الى الوراء اذا صح التعبير ، او امعاناً في التهديم .

ذلك هو عالمنا الراهن ، عالم انتقالي ، يبعث الحيرة في العقل والقلق في النفس ، وهو مترع بآمال يعجز عن تحقيقها .

ذلك ان الانسان التقني ــ انسان القرن العشرين ــ كالساحر اخرج المارد من محبسه وعجز عن اعادته اليه .

فالغرب الثوري تخلف لأن الرأسمالية عرفت كيف تجدد ذاتها فتستخدم التقنية والتخطيط لتجر البروليتاريا في ركابها . واصبحت اوروبا تحكمها بيروقراطية تحولت تدريجياً الى تقنوقراطيا (حكم الاخصائي) تخطط لزيادة الانتاج ، وصار هذا كـكائن حي يتكاثر بفعل قوته الذاتية ، ولكن دونما هدف اخلاقي او انساني . اما المعارضة اليسارية فهي الآن ، ولحد بعيد ، جزء من حيوية النظام الرأسمالي . ومع ذلك فاوروبا الرأسمالية تشكو من تخلفها التقني و كأنها ، على ماقال أحد ممثليها ، عالم ثالث بالقياس الى امريكا.

وامريكا التي تركزت فيها الامبريالية ، كما قال فيدل كاسترو ، تستأثر بالتقنيين لتضعهم في خدمة آلة حربية جهنمية ، هي بدورها في خدمة احتكارات تستخدم الثقافة (حصان طروادة) جديد لتهدم الثقافات القومية وتشوه الاخلاق بالدعاوة المغرضة والفيلم المبتذل . فلقد كان في مدينة سايغون قبل الثورة، على ماذكر مندوب فيتنام الجنوبية (سبعون ألف امرأة) تمارس البغاء العلني . هذه الظاهرة الصارخة من عشرات الظواهر التي اوردها المندوب المذكور ، كافية للتدليل على عمق المأساة التي تعانيها البلدان المستعمرة . ومع ذلك فامريكا هذه تشكو ، الى جانب تعارضاتها الذاتية ، الى جانب مشكلة الزنوج التي تهددها من الداخل ، تشكو هي ايضاً من التحلل الاخلاقي وانتشار المخدرات كال (L.S.D) وغيره على نطاق واسع بين شبيبتها انتشاراً سريعاً يتسرب ، عن طريق العدوى ، الى بلدان العالم الرأسمالي كله . مما يدل على ان الرفاه المادي ليس وحده حلاً لمشكلة الانسان ، وعلى ان العدالة تقضي باعادة النظر من الاساس في النظام الاقتصادي والاجتماعي ضمن العالم المصنع ذاته .

والعالم الثالث ايضاً حائر وقلق . . فلقد دخل القرن العشرين عن طريق

ثقافة غريبة عنه ، تعرّض كلاً من امه اذا ماتمثلتها كلياً لفقدان هويتها . وعلى كل منها الآن ان تستعيد ماتبنت ضمن وجودها القومي. هذا الفاصل بين حقيقة العالم الثالث التاريخيـــة وتطلعاته مبعث لقلق كبير ، ولكنه بذات الوقت المحرّك الايجابي لتمرده .

اصبحت ثورة العالم الثالث امراً واقعاً وموقفاً لاعودة عليه ،وهي تتسع يوماً اثر يوم ، فكيف نوجهها ونوحدها في حركة تدك حصون الامبريالية وتعطي للثورة معناها الاخلاقي وبعدها الانساني ؟ لقد تبنت بلدان العالم الثالث (كل منها جزئياً او كلياً تبعاً لوضعها) الاشتراكية والماركسية طريقاً للتحرر . ولكن الماركسية ليست حلاً جاهزاً ، ولا عصا سحرية تفتح بفعل قوتها الذاتية أبواب الملكوت، بل هي ، طريقة ومعنى ، شأنها في ذلك شأن كل فلسفة ثورية، اذا لم تتجدد من الداخل فقدت مبرر وجودها. فالتخلف ليس اقتصادياً كما يظن البعض ، بل نظري .

لقد كان العالم الثالث وما يزال يعتمد لحد بعيد على مفكري اليسار الغربي . فهم ـ في هافانا (٧٠ مندوباً لفرنسا مقابل ٩ للاتحاد السوفياتي) وفي غيرها ـ يحتلون مقام الصدارة في قاعات مؤتمراته ، وكأنهم ضمانة لصحة الخط الثوري النظرية . ولكن اليسار الغربي يشعر أكثر فأكثر انه لايستطيع اعطاء مالا يملك . فمثقفوه ينعمون بخيرات البورجوازية ويشتمونها لعجزهم عن تقويضها. ولهذا تراهم يقفون من العالم الثالث ، تارة موقف المتملق وكأنهم ينتظرون منه حل مشكلاتهم ، وتارة موقف الحكيم المسن ،غني بالافكار ، عاجز عن العمل .

لقد ضم مؤتمر هافانا الثقافي نماذج وألواناً من ثقافات اليسار العالمي كله . ولكن ، عبر الحماس الثوري والتحليلات العلميـــة الدقيقة ، عبر الخطب المنمقة

والتطلعات الرصينة كانت ترتسم في افقه تساؤلات كثيرة هي محركه الخفي ، وهي التي أعطته قيمته ومعناه . وليس في هذا مايدعو الى التشاؤم ، بل الامر على العكس ، فالقلق والتساؤل من شأن الانسان الحي .

لقد دخل العالم الثالث ، دخلت الجماهير الشعبية التاريخ من أبوابه العريضة منـــذ ربع قرن، قوة اولى لاثالثة . وفي مؤتمر هافانا دللت هذه القوة ، بقلقها وتساؤلاتها ، على انها بلغت مرحلة من الوعي حاسمة او تكاد تكون ، وعلى أن العالم اصبح بذلك على مشارف تحول جذري . ان في العالم الثالث وفي الجماهير الشعبية فائضاً انسانياً هو الرصيد الذي بددته الشعوب جزافاً خلال قرون طويلة، وهو الذي يجب عليهـــا ان تحسن استعماله الآن لتنتصر على الاحتكار التقني ، فالتقنية من ابداع الانسان وهو سيدها .

هذا ما أشار اليه فيدل كاسترو في خطابه .

وبرهن على امكان تحقيقه مندوب الفيتنام الجنوبية بامثلة كثيرة مستمدة من ثورة بلاده، نقتصر منها على ثلاثة : فالفيتناميون، على بدائية وسائل فلاحيهم، يعيدون بناء المعابر والجسور كل مرة يضربها الطيران الأمريكي . وهم أيضاً يعطلون عمل الأعلام الامريكي الجبار باعلام شفوي ينقل بسرعة قياسية صور المعارك واخبارها (لان فيتنام لاتملك تلفزيون) كما ينقل الافكار والبيانات، وكل وسائل التثقيف من الفم الى الفم . وهم اخيراً يجمعون ، لا بين الدراسة والعمل فحسب ، بل بين الدراسة والحرب .

كما بيّن نائب وزير الثقافة في فيتنام الشمالية قدرة بلاده على الجمع بين القديم والجديد اذ قال ما خلاصته : يستمد شعبنا قوته المعنوية من ثقته بتقاليد قوميـة عمرها (٤٠٠٠ سنة) . اننا نأخذ عن اجــدادنا ، الى جانب الاخلاق والروح

المعنوية، دروساً عظيمة ودقيقة في الستراتيجية الحربية . وما يزال اجدادنا احسن من علمنا ستراتيجية حرب التحرير الشعبية . فضباطنا يدرسون ويدرسون بدون انقطاع ما كتبه ابطالنا القوميون عن الحرب في القرن العاشر وفي القرن الثالث عشر وفي القرن الخامس عشر ، الخ . ان ابطالنا اليوم يحاربون وبذات الوقت يكشفون عن آثار بلادهم . فكل قرية من قرانا تسجل اليوم مآثرها وتنقب عن آثارها في الماضي منذ ماقبل التاريخ الى اليوم . ان التاريخ قوة ، وبما ان الشعب هو الذي يصنع التاريخ فعليه ان يعرف تاريخه ويكتبه . نحن ندرس تاريخنا القومي في المعمل وفي التعاونية وفي النادي .. وفي المدرسة . ولهـذا فوطنيتنا قديمة وحديثة : قديمة بوجودها وحديثة بتطلعاتها .

هذا الخط الذي يتبنى الامة اساساً ينطلق منه الانسان ليلتقي مع الانسان (وقد حاول بعض مثقفي الغرب تجاوزه الى الاممية مباشرة) هو الذي وجه المؤتمر في أهم ابحاثه وعند وضع توصياته . فجاء في هذه الاخيرة ان تقاليد الامة ولغتها وبناها الذاتية هي أول مايحاول المستعمر تخريبه لانهـا قاعدة كل تحرر حقيقي وكل ثورة اصيلة .

كما رجح ، على ماترى ، الثورة على الايديولوجيات الثورية ، لالتتنكر لهذه ولكن لتجددها . لقد طورت البورجوازية استراتيجيتها وبدلت مواقعها ، أو بالأحرى قامت بثورة مضادة ، على الثورة الحقة أن تتخطاها لتضمن لذاتها الاستمرار . فالثورة المستمرة (شعار المرحلة التاريخية الراهنة) هي التي تتجاوز ذاتها دون انقطاع ، لا بالنسبة لمعطيات الواقع فحسب (فهذا أمر بديهي) ولكن بالاستناد الى الاتجاهات الفكرية (فرويد ـ نيتشة ، كما طالب كوستاس اكسيلوس) والفنية (أندريه برتون ، انطونن ارتو ، كما طالب الكاتب الفرنسي ألن جوفروا) التي عبرت ، وعلى طريقتها الخاصة ، عن هذه المعطيات .

ذلك أن الثورة ، كما تراها كوبا ، كما تراها أمريكا اللاتينية (وقد عبر عن هذه الفكرة مندوبوها بمختلف الأشكال) فن ، أو بالأحرى شعر (بالمعنى الاغريقي للكلمة ، أي خلق) . فالشعر ليس انعكاساً للواقع بل هو ابداع للواقع ، كما قال فرنندز سانتو (اسبانيا) ، كلماً وصوتاً ونغماً ، يتحدث الى الانسان كله عقلاً وعاطفة وخيالاً . أو ان التمرد ، كما رأى البير كامو ، هو الانسان في حقيقته الحية .

ولهذا جاء في توصيات اللجان وفي التوصيات العامة أن الثورة والثقافة أمر واحد . وجاء في هذه أيضاً : « اذا كان اندحار الأمبريالية هو الشرط المسبق للحصول على ثقافة صحيحة فالثورة ،بالنسبة لعالم متخلف ، هي الثقافة بالذات. » وأيضاً : « نشهد في العالم الثالث اليوم أعلى تجليات الثقافة ألا وهي الحرب الشعبية دفاعاً عن مستقبل الانسانية » . وهذا صحيح شريطة أن ينمو العقل بنمو الثورة ليكون بمقياسها .

فالثورة هي التي تنشىء البنى الاجتماعية في العالم الثالث لأن التخلف ظاهرة مصطنعة فرضها الاستعمار بتشويهه للبنى الأصلية ، وهي التي تنشىء الفنان والباحث والمفكر والسياسي عندما يعرف هؤلاء كيف يندمجون في حركتها الصاعدة ، كما فعل أرنستو شي غيفارا وبقية أبطال الثورات التحررية في الماضي والحاضر .

الثورة أخيراً تربية كاملة تكوّن الطالب كما تكوّن العامل والفلاح والمواطن ، تكوّن الشعب كما تكوّن الانسان الجديد والمجتمع الانساني المقبل لأنها توحد حيث فرّقت البورجوازية ، تجمّع حيث بدّد الاستعمار ، تبني حيث هدّمت الامبريالية .

وبكلمة مختصرة فان الثورة حركة كلية ، والشعر كذلك ، فهما واحد . والشعر هو الذي يميِّز ثورة كوبا وثورة أمريكا اللاتينية عن بقية الثورات الكبرى في أيامنا .

* * *

وأخيراً فان من يلقي نظرة مجرّدة على مجموع البحوث التي ألقيت في مؤتمر هافانا الثقافي ، متناسياً الملابسات التاريخية ، يخلص الى هاتين النتيجتين : الأولى أن التقنية والجماهير الشعبية هما الظاهرتان اللتان سينبثق عن تلاقيهما عالم الغد . الثانية ان تحقيق العدالة الشاملة أصبح الشرط الأساسي لتجاوز متناقضات تهدد عالمنا كله (المصنّع وغير المصنّع) بالانفجار .

الرواية الجديدة في المواجهة

محمد زفزاف
— المغرب

تقول ناتالي ساروت Nathalie Sarraute في مقدمة كتابها « عهد الشك » : ان المناقشات العديدة التي تثار حول الرواية المعاصرة، وخصوصاً ما يسمى بالرواية الجديدة قد حملت الناس على ان يظنوا في هؤلاء الروائيين مجرد مجربين باردين بدأوا في وضع نظريات اعطوها من انفسهم الكثير لكي يجعلوها في نطاق عملي ، وامكنهم بذلك القول عن هذه الرواية بأنها ليست سوى « تجارب مخبرية » . . .

ولما وضعت ناتالي ساروت كتابها « عهد الشك» L' ère du soupçon أكدت بادىء ذي بدء أن اغلب الأفكار الواردة في الكتاب تكون قواعد مهمة لما يسمى بالرواية الجديدة . وان ناتالي ساروت

لتبدو مدافعة عن الرواية الجديدة بشكل ما ، دونما حاجة الى الاعتراف . . . واذا كان من المتداول المعروف أن الرواية المعاصرة نوعان متميزان : سيكولوجية ووضعية .. يمثل احد النوعين روايات دستويفسكي ، والآخر قصص كافكا ، فان ناتالي ساروت تؤكد أن أزمة ما يسمى بالسيكولوجيا وجدت – كما يبدو – نتيجة وجود الانسان المعاصر المضغوط تحت ثقل الحضارة الآلية .. هذا الانسان الذي – كما تقول أ . مانييه – يرزح تحت ثقل الثالوث المحدد لشخصيته ، والمتمثل في الجوع والجنس والطبقة الاجتماعية : بافلوف وفرويد ومار كس . وتؤكد كذلك بأنه مضى العهد الذي كان يظن فيه بروست أن باستطاعته – وهو يدفع انطباعاته بعيداً بالقدر الذي تسمح به الظروف – أن يذهب الى اقصى هذا العمق حيث الحقيقة والعالم الواقعي وانطباعاتنا الحقة ... لكن كل واحد منا الآن – تقول ناتالي ساروت – بفضل الجينات المتوالية يعرف انه ليس هناك عمق اقصى .. ذلك لأن ما كشفه تحليل بروست لم يكن سوى مجرد سطح .. نعم ، هكذا وبجرأة فائقة توجه الاتهام الى عالم الانسان الداخلي بسيولته وتفككه معاً .. بمادته المختلطة ذات الطابع الهلامي .. وان ذلك ليعني بصورة مباشرة كشف الغطاء عن هدف الرواية الجديدة المتمثل في اخذ الانسان من جانبه الموضوعي لا السيكولوجي الداخلي .. ذلك العالم الذي ألفناه عند وولف وجويس وبروست . تقول فرجينيا وولف : « ان الكتاب المعاصرين (وتعني عصرها) ليمتازون بسبر أغوار السيكولوجية المظلمة .. » وتقول ايضاً : « إن فن القصة المعاصر في تقدم على الفن القديم ... ذلك لأن القدماء لم تكن لديهم الأدوات اللازمة ، وكانت مادتهم جد بدائية فجاءت أعمالهم من البساطة بمكان . » ومن جانب ناتالي ساروت التي تقول بأنها أتت بمبادىء للرواية الجديدة فانها تقابل هذا

الكلام ينتهي السحرية التي قابلت بها بروست واهتماماته بالتجويفات الداخلية للانسان. ان الأمر على كل حال قد أعطاه اصحاب الرواية الجديدة شكلاً وتجسيداً بينين . وان اهتمامهم بالانسان وبموضوعيته قـد أصبح له بالفعل عندهم حرارة لا « برودة » كما هو الاتهام ... وينعت احدهم كل هذا بأنه جدل استمراري نجده عند جميع من تكلموا عن الرواية الجديدة منذ عشر سنوات : فبوتور Butor وروب غرييه Roble - Grilbet يفقدان الأدب سكونه ورقوده العتيقين، مؤكدين ان شكلية العمل الفني تتحكم في محتواه ومضمونه (كالانسان في الرواية الجديدة تماماً بتمام) وأن الحالة الوصفية هي بلا شك ما كان يهدف اليه هوسرك Husserl من ادراك للعالم الظاهري ...

لقد استفادت الرواية الجديدة من السينما من عدة أوجه، كالسرعة وتلافي التعليقات الإضافية المحشورة بعنف افتعالي ... ويؤكد أحد النقاد بأن كل ما أضافته الرواية الجديدة هو الاهتمام البالغ بالنظر الى ظواهر الأشياء اوما يمكن تسميته بالعين ـ الكاميرا .. وان تلك التأملات وتلك الوقفات امام باب اوحذاء او نافذة كانت السينما قبل أن تصبح ناطقة تعجز عن تزكية مثل تلك الوقفات والتأملات . ويجب التذكير هنا بأن فلسفة هوسرل الظاهرية تؤكد بأن الادراك الشيئي ليس الا وجهاً من وجوه الوجود الانساني الذي يتمتع بشتى الدلالات والغلاقات والنوايا الباطنية . وبكل ما يمكن ان يعانق بجموع الحياة الانسانية ـ ويبدو هذا الموقف مواجهاً بشكل ضمني لموقف بروست وفرجينيا وولف اللذين يعلقان أكبر الامل على باطنية الاشياء وخلفيتها .. بل إن بروست ليذهب تأمله الى أن الاحجار تتحدث وتنطق وتقول شيئاً ماذا أهمية .. ففي رواية الغثيان لسارتر يقف روكنتان أمام جذر شجرة .. انه شيء ... شيء يبدو له .. وهو يتحقق منه ..

إنه حامل شتى المعطيات والعواطف. انه في النهاية موجود.. موجود هكذا بشكله المجسد. وتجعل أولغا برنال أمام هذه الوقفة من سارتر رائد روب غرييه، لانه حمل فكرة العمق الوجودي لحالة حية.. لكنها تعود لتؤكد بأنه لم يذهب الى النهاية لانه كان هادفاً أولاً وأخيراً « ولانه حول تجربة العدم الى تجربة إنسانية ». ولم ينته كما يقول جان دوفينيو الى معرفة فراغ الواقع وادراك انه ليس الا غياباً محضاً.. واذا حاولنا ان نبحث عن جذور لمبدأ الظاهرية، هذا الذي ترتديه الرواية الجديدة اليوم. فلا شك أننا لن نبتعد قليلا عن السينما، فقد لعبت دورها ولا تزال في الادب، في الرواية والقصة بالاخص.. وإن فن المونتاج القصصي الذي انتهجه جويس ووولف لم يكن سوى صدى لظهور السينما. يقول جان ميتري في كتابه « جمالية وسيكولوجية السينما Esthétique et Psychologie du Cinema » : بأن المخرج جريفتي لم يؤثر في السينما من بعده فقط وإنما أثر حتى في أدب عصره وما بعده، اذ اليه يرجع الفضل في ظهور الرواية بشكلها الجديد من الناحية الزمانية والمكانية، والتي حذا حذوها بعد ذلك دوس باسوس وألدوس هكسلي وفرجينيا وولف وآخرون (ص ٢٧٩ من الكتاب المذكور).. ولم يذكر جويس... لكن هذا لا يمنع من انه سيتأثر بعد ذلك وسيؤثر بشكل ملحوظ فيمن يليه... ثم ان قول ميتري ليس حاسماً بصفة نهائية، ذلك لان الرواية القديمة والتي لم يشاهد اصحابها أفلام جريفتي قد كانوا يستعملون المونتاج، وكانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالاشياء على اعتبار أن العلاقة بينها وبين الناظر ليست « فيزيقية » بل هي اكبر من ذلك، فهي علاقة حضارية لانها تنطق بماض وتتنبأ بمستقبل... ولعل ألفونس دوديه A. Daudet قد صور ذلك الاهتمام البالغ بالمونتاج والالتفاف الى الشيء كظاهرة مهمة في رائعته « سافو Sapho ». وربما لم يشاهد أفلاماً لرجل اسمه جريفتي

والتي يقال عنها إنها لم تعرض الا بعد الحرب في اوروبا . ورغم ذلك فهذا كله يدل بشكل قاطع على أن للسينما دورها في تغيير مسيرة الأدب وفن القص بوجه خاص ... وانه ليس من التجني بحال امكانية الجزم بأن الموجة السينمائية الجديدة تواكب وتأخذ بيد الرواية الجديدة في طريقها الوعر . وكما أن ذلك الإغراق في الواقعية قد أثار حنق العموم، فهو في الأدب قد أثار موجة الاستياء حتى من جانب الذين كتبوا في الرواية الجديدة وألفوا فيها وأعطوها من ذواتهم مقداراً لا يستهان به ... يبدو أن في ذلك تناقضاً ومواجهة .. لكن مما لاشك فيه أن ذلك يعني بالنسبة لروب غرييه وزملائه الموت النهائي. ذلك لأن اعتبار الانسان شيئاً حاضراً دائماً بلا ماض هو دعوة الى الشيئية ، ومن ثم الى اللاحضارة ، ثم الى عدم الحضور . اذ يصبح لحظتها الحضور وهمياً ، اذ لا مجال لنفي ذلك . وهكذا ففرانسواز بارتوريه (احدى المهتمات بالرواية الجديدة) تقول في حديث لها الى صحيفة الفيجارو الأدبي عن روب جرييه : « إني جد مستاءة من عدم تطبيقه لنظرياته ... انه لم يضعها أبداً في صورة عملية . لقد قال انه يريد أن يرجع الى الواقع ، الى الموضوع ، الى الرؤيا المباشرة .. ولكنه عوضاً من ان يفعل أغرق في الوصف ». ولكن هذه الكاتبة الفرنسية تؤكد بأنها ستحاول اكتشاف « ضد الرواية الجديدة » أي نوعاً آخر يفوق مادعا اليه روب جرييه وناتالي ساروت وغيرهما . ولقد سمت ذلك النوع من الروايات ب « الرواية ـ الفلاش » .. وهي لا تختلف في جوهرها عن الرواية الجديدة بحذفها « للتعليقات » غير الضرورية . « انني لست في حاجة الى أن أصدر الأحكام على النـــاس » تقول فرانسواز بارتوريه .. وليست هذه الكاتبة هي الوحيدة التي تمردت على مدرستها التي تعشقها العديد من النساء .. فهناك دومينيك رولان كذلك .. وقفت هـذه الأخيرة

أيضاً في المواجهة . ففي روايتها الأخيرة (الدار ، الغابة La maison, la forêt)
كانت جد مبتعدة عن مذهبها .. ولم يكن لها حظ منه سوى القلق (الذي يخفي ثورة) . . لقد بدأت اولاً « بالبطاح » وأردفتها بقصة « السرير » . . وكانت في كل ذلك عنيفة وقوية كما يجمع النقاد . . . كانت متكئة على أساطين من الصلب . غير أن هذه الأساطين سرعان ماتصبح من الطين بصدور روايتها الأخيرة « الدار ، الغابة » . فموضوع الرواية بسيط ومألوف جداً . زوجـــان عاشا خمسين سنة مشتركة . . وهما مفترقان من زمان داخلياً . . ولأنهما يعيشان تحت سقف واحد . . مرتبطان بالعادي ، فانهما يحملان وجوداً متوازياً . . واذا لم يكونا غريبين فلأنهما لايستطيعان أن يريا بعضهما . . ففي الخفاء كل لنفسه . . . وهنا خطر الظاهرية !! أي زهرة تخفي وراءها صلاً مسموماً .. ومع ذلك ، والشكل الروائي على هذه الحال . . فان العمق يختلف اختلافاً مبدئيـــاً عما كتبته دومينيك رولان قبل روايتها الأخيرة هذه . ثم ان في بعض الأختلاف كل الاختلاف . . . فاذا كانت الرواية الجديدة نفياً للعمق ودعوة للبلزاكية مع احداث تصرف واضح وجلي في حذف « التعليقات » و « عـــدم اصدار الأحكام » . . واذا كانت الرواية السيكولوجية على العكس من ذلك تتهم البلزاكية بأنها كانت من « البساطة بمكان » وأنها لم تكن لديها الأداة اللازمة ، فانها على كل حال يتفقان مسبقاً على مبدأ واحد هو « التوقيف » . . . فبامكان الرواية السكولوجية توقيف العقل — القيمة ، واحلال الهوى بدلاً منه كما ان بلمكانها العكس كذلك . . وهي اذ تستطيع ذلك فانما تتخداه الى توقيف الزمن معاً . . . واحداث الحدوش حتى في المطلق . . وهي بامكانياتها هذه تمتاز عن الرواية الجديدة التي لاتستطيع كل شيء . . ان بامكانها قطع الصلة بين التاريخ و كفى . . تقطيع الزمن . . . . فالبطل بلا ماض

ولا مستقبل .. ولأنه نتاج المضارعة La Présense فانه لن يني ان يكون ضحيته المستسلمة .. ويبدو أن هذا بعيداً عن البلزاكية .. فالاكتفاء ليس الا في الواقعية والتصوير الفوتوغرافي .. واذن فالرواية الجديدة فوتوغرافية صرفة لاتتدخل ولا تعلق .. انها تكتفي بالنقل المباشر للمنظورات .. وفي رواية « السرور يؤدي الى المحكمة » لفرانسوازبارتورية تعيش السيدة موراني بطلة الرواية « وقاحة لاتحتمل » ضاربة عرض الحائط بجميع الاهتمامات الآخرية الجهنمية .. انها سيدة ترأس وكالة للإعلانات .. ولأنها ابنة العصر فان بامكانها ان ترغب في مطارحة اللذة لفتى في الثالثة والعشرين دونما اي خجل ، وان تفعل معه « الحب » أمام الملأ .. في عصر بلزاك كانت الاميرة كادينيان تختفي .. ان ذلك النوع من الحب كان محرماً ، اما الآن فممارسه اللذة شيء يجب ان يتمتع به الكل المرأة والرجل على السواء .. وتقول الكاتبة عن روايتها : ان بطلتي ترغب في السرور والتمتع لأنها لاتؤمن بالحب .. وهي تعرف كذلك ان الرغبة ليست أبداً قارة ودائمة .. وهذه المرأة التي تعيش بنوع من الوقاحة والمجون .. وبأنانية مطلقة وغياب كامل لقلبها ، هل تعتبر سعيدة أم شقية ؟ تجيب الكاتبة بأنها لاتعرف .. ان هذا لايهمها بقدر مايهمها وصف اللحظة .. الوقوف في الحياد هو الموقف الايجابي — نعم انها لاتعرف ، وكل مافي الامر أنها تستجيب لرغباب امرأة تريد ان تعيش بجرأة وأن لاتخفي شيئاً .. أن لايكون لديها عمق .. أن لايكون لديها الظلام .. ذلك لأن العصر يفترض الوضوح ويتشبث بالمضارع دونما أي التفات الى اليسار او اليمين .. أو حتى التطلع الى المستقبل .. ماذا سوف تكون نتيجة الفعل لدى بطلة الرواية ، وماذا يلاقيه هذا الفعل لدى المجتمع والرأي العام من معارضة ؟

كل هذا لايهم بقدر ماتهم اللحظة واللحظة واللحظة ...

عود إلى مسألة

الالتزام في الأدب

يوسف حلاق

يكاد الالتزام في الفنّ عامة وفي الأدب خاصة أن يكون احدى المقولات الجمالية الاكثر اضطراباً وتشويشاً . ومردّ ذلك يعود — في رأينا — إلى جدّة هذه المقولة نسبياً في الفكر الجمالي العالمي من ناحية ، وإلى ارتباطها — من ناحية أخرى — بجملة من المسائل الجمالية الأخرى ارتباطاً لم يقل العلم كلمته الأخيرة فيه بعد .

ومما زاد في تشويش المسألة ما استقر في اذهان الكثيرين ، إن لم نقل الغالبية ، من أن الالتزام وقف على اتجاه معين في الأدب والفن

هو الاتجاه التقدمي عامة والاشتراكي خاصة، بما أظهره كمسألة خاصة أُقتحمت إقتحاماً في علم الجمال لأسباب أبعد ما تكون عن الفن والأدب. وكنتيجة منطقية لذلك كان الكلام في الالتزام ينقلب — وفي كل مرة — إلى مشادّة سياسية عقيمة يقف منها دعاة الالتزام — وهم في الغالب انصار الاتجاه التقدمي أو الاشتراكيّ — في طرف، ودعاة اللا التزام — وهم عادة أنصار اليمين — في الطرف الآخر، دون أن يدرك الجانبان أنهما — كليهما — ملتزمان ولكن بمواقف مختلفة. **أي أن الالتزام السياسي كان ينقلب في ابحاث هؤلاء وبشكل آليّ إلى التزام** أدبيّ دون اعتبار لماهية الأدب الخاصة.

ولسنا نعلم — فيما كتب عندنا في هذا الموضوع — أن البحث تناول غير هذا البُعْد — البعد السياسي — وتناوله — مع الأسف — بشكل بدائيّ وفجّ. فأنصار اللاالتزام، انصار الفن للفن، طعنوا أوّل ما طعنوا في انعدام حرية الأديب «الملتزم»، حتى أصبحت كلمة الالتزام مرادفة في قاموسهم عن جهل — إن لم نقل عن سوء نية — لكلمة الالتزام. ثمّ راحوا ينعون على «الملتزمين» ترديدهم الببغائيّ لشعارات سياسية مكرورة ومعادة، ويستذكرون بمناسبة أو بغير مناسبة كل ما قرأوه أو قرأوا عنه أو تناهى إلى أسماعهم من مؤلفات أدبية فاشلة أو فترات ركودٍ من تاريخ بعض الآداب يعتقدون أن الالتزام هو سبب تدهورها المباشر. ويردّ أصحاب الالتزام فيصمون الأولين بالابتعاد عن الشعب وقضاياه والتعالي عليه والتقوقع والأنانية، ويوردون — بالمقابل — مجموعة من الآثار الأدبية الناجحة ... أما الالتزام، منابعه وماهيته، فيبقى في الظل عند هؤلاء وأولئك.

أن تكون السياسة، لا بمفهومها العاميّ، بل السياسة على أنها نشاط إنساني — اهتمام بمصير الانسان والمجتمع — غير بعيدة عن مجال الأدب فأمر من طبيعة

اشياء ، كما نعتقد. وسيصعب إن لم يستحل على أي كان ، سواء كان نصيراً للالتزام أم عدوّاً له ، أن يماري في هذه الحقيقة أو أن يتجاهلها أو يجرّحها . قد يكون هذا الاهتمام أظهر عند اديب منه عند آخر أو في نوع أدبي دون آخر ، لكن هذا الاهتمام قائم ، بل هو من صميم التأليف الأدبي . وبودنا أن نتساءل عن ذلك الأديب ، الاديب الكبير خصوصاً ، الذي لم يلتزم فكرة معينة يدعو اليها ويبثها في نثره أو شعره . ولفتة عجلى إلى تاريخ ادبنا العربي وآداب غيرنا تكفي لنجزم بأن معظم الأدباء كانوا يتطلعون عن وعيٍ أو غير وعيٍ ، الى ان يلعبوا الى هذه الدرجة أو تلك دوراً قيادياً في مجتمعهم . ألم يكن شاعر الجاهلية لسان حال قبيلته وداعيتها ؟ أننسى شعراء صدر الاسلام وبني امية والخوارج أو ادباء نهضتنا الحديثة ؟ هل كان دورهم دون دور غيرهم من زعماء السياسة أو المصلحين ؟ وهلاّ ذكرنا قول أفلاطون في هوميروس من انه « علم اليونان كلها » ! وماذا عن ادباء الانبعاث الأوربي ومنوّري القرن الثامن عشر وأدباء القرنين التاسع عشر والعشرين ؟ ألم يغرق معظمهم حتى شحمة أذنيه في امواج الحياة العامة ؟ أو لم يلعب الكثيرون منهم دوراً سياسياً بالفعل ؟ وحتى أولئك الذين يدّعون أنهم خدمة الفن الحقيقي وحراسه الامناء ، القابعون في « برجهم العاجي » بعيداً عن البشر وهمومهم التافهة يناجون آلهة الشعر ويستلهمونها ، أليس بُعْدُهم وانزواؤهم شهادة عليهم على انهم ، هم الآخرون ، قد اختاروا موقفاً معيناً من الحياة والناس ، سلبياً هذه المرة ؟ ونحب ان نسأل هؤلاء بالذات الذين يؤمنون (كذا) بأن ليس للأديب او الأدب أي دورٍ اجتماعي ، لماذا يروّجون لنوع معين من الادب ويعانون في سبيل ذلك العنت والإرهاق ويتخذون من أي مؤلّفٍ يُسْتَشَمُّ أو يَسْتَشِمّون منه التعرض لنظام اجتماعي معين منطلقاً لوصم هذا

المجتمع والنيل منه ؟ أليس في هذا كله تناقض وأي تناقض إن لم نقل مراءاة وأي مراءاة ؟!

لكن هناك فريقاً ثالثاً قام يدعي التعقل والموضوعية (ولكن دائماً من نفس المواقع الخاطئة أي الخلط بين الالتزام السياسي والالتزام الادبي) ليمنح للأديب حرية الالتزام أو عدمه (كذا) على أن يكون لما يكتب قيمة فنية .

قد يبدو هذا الموقف لاغبار عليه للوهلة الاولى. ولكن ما إن نمعن النظر فيه حتى تبرز أمامنا نقطة ضعف مبدئية هي كون الالتزام محمولاً على الأدب في الخارج لا منبعثاً من داخله ، من حقيقته كأدب . وهنا ، على وجه الضبط ، جوهر المسألة .

فما هي منابع الالتزام يا ترى وماهي ماهيته ؟

إذا سلمنا بأن الادب اعادة لخلق الحياة كما يراها الأديب وتقييمها بواسطة الكلمة الفنية (اي الكلمة التي تثير متعة جمالية) وبأن للأديب ، كانسان ، انتماءاته الطبقية والقومية والانسانية والفكرية ، نكون قد حددنا مصدري الالتزام .ذلك ان أي انسان يملك الى هذه الدرجة او تلك تصوراً عن الحياة ، رؤية لها كما هي وكما يجب ان تكون . وليست هذه الرؤية ، كما هي الحال عند علماء الاجتماع أو الفلاسفة ، حصيلة مفاهيم مترابطة أو محاكمات منطقية متماسكة او نتائج نابعة بدورها من مقدمات او مسلمات ، بل انها حصيلة تجارب وملاحظات حياتية وثقافة معينة وارتباط فكري او مصلحي واع او غير واع بهذه الفئة الاجتماعية أو تلك في فترة تاريخية محددة . ولهذا ، بالضبط، تحتوي هذه الرؤية (او هذه الايديولوجية كما يمكن تسميتها تجاوزاً) على قدر كبير من التلقائية والعفوية والانفعالية . وللأديب مثل هذه الرؤية لكن بدرجة قد تكون

عشرات المرات لا بل مئاتها اوسع وارهف وأغنى واشد تركيزاً . وكما يحاول الناس ان يحققوا في نشاطهم وعلائقهم الاجتماعية هـذه النظرة منطلقين في تقييمها من مثلهم العليا (مايجب أن تكون عليه الحياة) فلايُسْتَبْعَدُ ان يحقق الأديب، كانسان ، رؤيته للحياة بطريقته الخاصة كفنان أي بواسطة الكلمة الفنية . نقول « لايُسْتَبْعَدُ » اشفاقاً على بعضهم من ان تصدمه الحقيقة وهي ان صنعة الأديب هي ما أسلفنا بالضبط .

الالتزام اذاً جزء من الفعل الادبي ذاته ، من هـــذا التفاعل المستمر الخلاق بين الاديب والحياة واغلى مافيها الانسان . ولـــن يكون الأديب أديباً حقاً الا اذا أدى رسالته التي هي ، في آخر المطاف ، خدمة الانسان .

إن انصار الفن للفن من (الكنطيين الجدد) يصرون ويلحون في الاصرار على ان الفن غاية بذاتـه منطلقين في ذلك من مسلمة كنط الشهيرة : غائية الفن بدون غاية . من الواضح ان مسلمة كنط هذه هي ، أحد جوانبها القوية ، صرخة مدوية في وجه العهود الالمانية الاقطاعية الهادفة الى تسخير الفن لخدمة اهدافها السياسية الضيقة ، وهي موجهة كذلك ضد الفهم العامي لعلم الجمال التنويري وعلى الاخص ضد اتباع المنورين الألمان الذين حاولوا تقييم الفن من وجهة نظر نفعية بحتة . ان هذه المسلمة لم تفقد ، بالتأكيد ، في عصرنا الحاضر غناها وحيويتها ولا زالت وستظل احتجاجاً قوياً ضد انصار المدرسة الاجتماعية العامية في الادب وكل من يفهم الادب ومقولاته على انه نقل آلي لمواقف اجتماعية او سياسية الى ميدان الادب دون ان يقيم وزناً لماهية الفن وخصائصه . اما الاشتطاط في التركيز على غائية الفن بذاته فقد ادى بالفعل ويؤدي الى التركيز على الشكل الفني دون أي اعتبار للمضمون مفرغاً بذلك الادب من محتواه الحياتي الاصيل . صحيح أن

مجرد وجود الفكرة الجيدة ليس ضمانة كافية لجودة التأليف الادبي، ولكن الصحيح ايضاً ان الشكل الجميل وحده (هذا اذا سلمنا بوجود شكل جميل دون وجود مضمون جيد) ليس اكثر من فقاعة صابون. ففي الحالة الأولى كثيراً ما قاد هذا الفهم الخاطىء إلى المباشرة والتوضيحية، وفي الثانية لم يكن اللعب بالالفاظ وترويق الكلام إلا إثارة جد موقتة ان أثارت فسرعان ماتخبو لتترك وراءها فراغاً نفسياً وجوعاً الى الكلمة النابضة بالحياة، بالاثارة الحقة تلك التي تحدث توتراً فكرياً انفعالياً يهز الانسان كله. والامثلة على هذين النموذجين من الادب اكثر من ان تحصى. ويبقى الخطأ القاتل في هاتين النظريتين، كما هو واضح، هذا الفصل بين المضمون والشكل، فصل لم يؤد في الممارسة الادبية إلا الى الاخفاق.

إلا أنه وجد من يفهم نظرية الفن للفن بشكل قد يكون اكثر عمقاً واصالة، لكن هذا الفهم لايثبت أمام البحث العلمي. ولقد وجدت هذه النظرية «المعدّلة» صداها في المدارس الادبية السوفياتية ايضاً فيمن اطلق عليهم او اطلقوا على انفسهم اسم «الشكليين». وفحوى هذه النظرية تتلخص فيما يلي: نحن لاننكر ان للفنان اتجاهات متعددة، ولكنه لايأتي بجديد، فالقيم ازلية، والنظريات يصوغها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس، والعواطف الانسانية كررت الف الف مرة، وبكلمة واحدة: لاجديد تحت الشمس. **فما تكون رسالة الفنان ان لم تكن قول ما هو قديم ومعروف بشكل جديد مبتكر، بشكل هو وحده ماهية فنه؟**

قد تبدو هذه النظرية مقبولة ومعقولة للوهلة الأولى. لكن هل الواقع كذلك؟

لاشك ان الفن، كأحد مظاهر البناء القومي للمجتمع، يقف الى

جانب غيره من مظاهر هذا البناء ، وعلى الاخص تلك المجالات التي يعرف موضوعها الانسان . على أن الفن ، مع ارتباطه الوثيق بهذه المجالات ، **يشكل دائرة مغلقة أي متميزة** عن غيرها ، ليس فقط من حيث أدوات تعبيرها أي الشكل ، ولكن من حيث موضوعه أي مضمونه أيضاً ، ان موضوعه هو الانسان كذات مستقلة فردة متميزة تتفاعل مع الحياة على طريقتها الخاصة وكذات اجتماعية تعكس في داخلها خواص مجتمعها المشتركة ، ولا يمكن للفن الا أن يعكس هذين الجانبين من الانسان بشكل متلازم ولا يمكن لأحدهما أن يغني عن الآخر . ولقد تنبه كثير من علماء الجمال الى هذه الناحية ، نخص بالذكر منهم الناقد الروسي الكبير بيلنسكي في الثلث الأول من القرن التاسع عشر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فكما أنه صحيح أن العواطف الانسانية **مطلقة في وجودها** فانه صحيح ، وبنفس القدر تماماً ، أن هذه العواطف **نسبية في تجلياتها** ووظيفة الفن رصد هذه التجليات والكشف عنها . وبالاضافة الى ذلك ليس صحيحاً أن القيم والأفكار الانسانية الكبرى كالحرية والمساواة والتعاطف الانساني **ساكنة** بل انها **ديناميكية** وكل فترة جديدة من التطور التاريخي تضفي عليها أبعاداً جديدة ، فهل مفهوم الخير او الحرية مثلاً هو نفس المفهوم الذي كان سائداً في القرون الوسطى أو زمن الثورة الافرنسية أو حتى في مطلع هذا القرن ؟

لقد بدأ الالتزام يشق طريقه الى عالم المقولات الفنية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولقد ظهرت بذوره الأولى في مؤلفات الديمقراطيين الروس وعلى الاخص دبرالوبون وتشرنيشفسكي ثم عمقت الماركسية بدراستها للبناء الفوقي هذه المقولة وأكد انغلز في بحثه لمؤلفات بعض الكتاب مثل بلزاك وشكسبير وغيرهما غائية الفن وطبقيته . لكن لا الديمقراطيون الروس ولا كلاسيكيو

الماركسية خلطوا ، في أي فترة ، بين الالتزام السياسي والالتزام الأدبي وإن اعترفوا بالتأثير المتبادل بينهما ، كما لم يدعوا أبداً أن الالتزام بالفكرة الجيدة أي التقدمية هو الشرط الوحيد والكافي لنجاح المؤلف الفني وإن كانوا قد أقروا بأن وضوح الرؤية الاجتماعية والالتزام بقضية لها المستقبل يرفدان الاديب بالوفير من من الملاحظات الحياتية الصحيحة التي تساعده على النجاح .[1]

لقد علقت بمقولة الالتزام تصورات خاطئة أو مبتذلة شوهت حقيقته . وأولى هذه التصورات هو الالحاح المبالغ فيه على أن الادب نتاج عصره، إلحاحاً جعل أو كاد يجعل من الادب انعكاساً مباشراً لاحداث العصر دون أي مشاركة خلاقة من جانب الاديب في العملية الادبية كما أدى من ناحية ثانية الى منزلق آخر أخطر هو تفريغ الادب من ابعاده الانسانية العامة التي تتجاوز حدود العصر الذي وُلد فيه فتجعل منه أدبا خالداً يهزأ بأطر الزمان والمكان . ونذكر على سبيل المثال جماعة الثقافة البروليتارية التي رفضت كل أدب الماضي وثقافته على اعتبار أنها ثقافة وأدب مجتمعات سيطرت فيها العبودية او الاقطاع أو رأس المال،أو جماعة المدرسة الاجتماعية في الفن (والتي سيطرت في الثلاثينيات من هذا القرن في روسيا ، وقد عُرفت فيما بعد بالمدرسة الاجتماعية العامية) التي كانت تقيس قيمة الادب انطلاقاً من انتماء صاحبه الطبقي ، فأدب تولستوي مثلاً أدب يعبر عن مصالح الاقطاع لان الكاتب الكبير سليل عائلة اقطاعية.. ولقد تناسى هؤلاء الغيورون على صفاء الماركسية (!) ما قاله ماركس في الادب الاغريقي القديم (ابن عصر العبودية) واسباب خلوده وما قاله لينين تعليقاً على رواية غونتشاروف

---

(١) يمكن مراجعة بعض كتابات ماركس وانغلز عن الأدب والفن وكذلك بعض مقالات دبرالوبوف ونخص بالذكر مقالته : ما هي الأبلوموفشناه .

المعروفة « ابلوموف » ذلك الاقطاعي الطيب القلب والحامل من « أن في كل منا شيئاً من أبلوموف » . . .

نحن لا نزعم أن الادب ليس ابن عصره ولا يعكس احداثه ونفسيته لا بل نحن أبعد الناس عن أن ننكر ذلك . واكثر من ذلك نحن نؤكد أن الادب لا يمكن أن يكون كبيراً حقاً وخالداً حقاً ما لم يكن وليد زمنه يعكس تناقضاته وقضاياه وتطلعاته . لكن ما ننكر ونلح في انكاره هو أن يقف الادب عند حدود زمنه لا يتجاوزه، والا ذوى وفقد قيمته كلما طوى التاريخ صفحة من صفحاته . ان الادب الخالد هو ما يكشف من خلال تصويره الامين لعصره بعداً أو ابعاداً انسانية جديدة نعمق بها فهمنا للانسان وحقيقته . والا فمن أين مصدر تلك المتعة الجمالية التي تكاد تسكرنا حين نتصفح ، ونحن نكاد نضع قدمنا فوق النجوم الاخرى ، صفحات من عصور موغلة في القدم تختلف في قضاياها ونفسيتها واهتماماتهـا عن قضايانا ونفسيتنا واهتماماتنا ، مسرحيات سوفوكل وشكسبير مثلاً ؟

كما لا يسعنا أن نمر لامبالين بناحية أخرى نرى أنهـا تلحق أذى بالغاً بمفهوم الالتزام هي تلك الدعوة ، المحمومة أحياناً لأن يرتفع الادباء «الى مستوى الاحداث» . ومعنى هذا « الارتفاع » هنا هو اللحاق السريع بتصوير الاحداث بحيث لا يترك الادباء شاردة ولا واردة الا وتجد لها رد فعل غالباً ما يكون سطحياً وفجاً فيما يكتبون . نحن لا ننكر أن الشعر الغنائي ، مثلاً ، بطبيعته الانفعالية قد يكون أقرب الانواع الادبية الى التأثر المباشر بالاحداث . انما هناك انواع أدبية اخرى كالقصة والمسرحية قد لا يكون لها مثل هذه القابلية لا بل نكاد نجزم بان مثل هذا اللحاق السريع بالاحداث يفقد الاديب في كلا

الحالين وفي كثير من الاحيـــان وضوح رؤيتها وفرصة تمثل التجربة وتكثيفها وادراك ابعادهـــا ومعانيها ، فليون تلستوي مثلاً لم يكتب ملحمته الخالدة « الحرب والسلام » الا بعد انقضاء نصف قرن تقريباً على غزو نابليون لروسيا ، وشولوخوف لم ينته من روايته المعروفة « والارض البكر حرثناها » إلا بعد مايقارب ربع قرن على ادخال الجماعية على الزراعة في روسيا . كما ان مأساة مايا كوفسكي ، كشاعر ، كانت ، دون شك ، رد فعله المخلص انما الآني على كل مايجد في الحياة السوفياتية : افتتاح مسرح أو مصنع ، دعاية لنسيج أو حتى حذاء من صنع سوفياتي . لقد ماتت هـــذه الأشعار الدعائية مع انقراض الظرف الذي وجدت فيه .

* * *

ان كلامنا عن الالتزام يبقى في إطـــار الغيبية والسديمية مالم نعرض لكيفية تجلي الالتزام عملياً في الممارسة الأدبية .

ولنقل بصراحة ان ظهور الالتزام مسألة جد معقدة يسلك فيها الأدباء مسالك متعددة كل حسب اسلوبه ليصل فيها الى فكرته التي قد تكون أحياناً خيطاً رفيعاً يكاد لا يبدو للوهلة الأولى لكنه موجود وعلى القارئ ان يكون متمتعاً بثقافة أدبية ملحوظة كي يمسك به . وقد يكون تعدد الانواع الأدبية وتشابكها الى حد ما عقبة اخرى في كشفنا لتجلي الالتزام . لكننا ، تسهيلاً لهذه العملية المعقدة بذاتها ، سنرجع هذه الانواع الى اجناسها الاصلية لنلقي الضوء على كل منها ونكون بذلك قد حددنا القوانين الأساسية التي تحكم كلاً من هذه الانواع . فاذا سلمنـا مع هيغل بأن الانواع الادبية ترجع الى اجناس ثلاثـة : القصص والشعر الغنائي والمسرحية ، واتفقنا معه — مع بعض التحفظات — على أن المسرحية جنس

وسط بين الاثنين الأولين نكون بذلك قد حـــددنا مجال بحثنا وهو القصص والشعر الغنائي .

وبودنا ان نشير سلفاً الى ان ظهور الالتزام في الفن القصصي (ملحمة ، رواية ، قصة قصيرة) أصعب وأدق من ظهوره في الشعر الغنائي . والسبب، كما نعتقد ، واضح . **ذلك أن ماهو مستقل عن ذات الكاتب** (الحدث ، الاشخاص الذين يتفاعلون مع الحدث ومع بعضهم البعض ، الزمـــان ، المكان) **يشكل موضوع الفن القصصي** . فكيف يتسنى للأديب ان يقيم مايجري ويحدد علاقته بأبطاله وهو لايتكلم باسمه الشخصي ؟ أيقف عند كل تصرف من تصرفات شخوصه ليقول لقد أحسن هذا وأساء ذاك واقتدوا بذا وأنا أدين هذا الموقف او ذاك . . . سيكون سخرية مرّة ان يفعل أديب ذلك وربما كان من الأفضل له ولنا ان يكتب لوحة بوصاياه العشر فيكفي نفسه مشقة التأليف ويكفينا عنت قراءته . طبعاً ان شيئاً من هذا لايحدث ولكن الاديب ليس على هذا القدر من السذاجة ليروي لنا أحداثاً قدتكون شيقة ولكن ليس لنا أو له بها أية علاقة . انه ما كر وعلى غاية من المكر وهو يتوسل لذلك بأساليب وصنعة على قدر مايحسن استخدامها يحسن النفاذ الى قلوبنا وعقولنا .

إن اخطر ماقد يتعثر به الكاتب القصصي هو امكانية الصدام او التناقض بين ذاتيته وموضوعه أي بين الحياة كما يراها وكما يجب ان تكون (ايديولوجيته) وبين الحياة كما هي (الحقيقة الحياتية) . ان هذه الامكانية قائمة فعلاً وقد تجر الى منزلقين كلاهما خطر على الفن القصصي : فإما ان يقتصر الكاتب على تصوير الحياة كما هي ويقع عندئذ في التصويرية والتشريحية وإما ان تكون شخوصه نماذج «أدبية» لأفكار معدّة سلفاً (حتى ولو كانت مطابقة للواقع في الظاهر) فيسقط آنذاك

في حماة التوضيحية . لقد علمتنا الممارسة الأدبية ومعلمو هذا الفن الكبار ان القاص الناجح حقاً هو من يعرف كيف يوازي بين ذاته وموضوعه ، هو ذلك الغائب ـ الحاضر أبداً والذي يعرف كيف يتجاوز تصوره السابق النظري عن الحياة حين لاينطبق هذا التصور على واقع الاشياء مع الاحتفاظ طبعاً بذاتيته أي حين يعرف كيف يخلق حقيقته الفنية الخاصة . والأمثلة كثيرة على ماأسلفنا نكتفي منها بأن نذكر أن بلزاك كان يؤمن ، نظرياً ، أن مصير فرنسا وتقدمها لابد وان يقوما على دعائم ثلاث : الكنيسة الكاثوليكية والملك والأشراف (خصوصاً هؤلاء . وقد بذل الغالي والرخيص ليضع امام كنيته حرف de) . لكن ماهو موقف بلزاك الفنان من هؤلاء الذين يعزون عليه الى هذا الحد . الجواب واضح . لقد عراهم ، عرى جشعهم وطمعهم وانسانيتهم المزيفة ولا اخلاقيتهم . اما تلستوي فقد كان يعتبر ان المسيحية (المتمثلة في الفلاح الروسي ، ليس أي فلاح بل اكثرهم اغراقاً في الجهل والاستسلام) هي التي ستنقذ العالم من كل شروره . ولكن ماانتهى اليه تلستوي عملياً في رواياته وقصصه ان أصل الشر هو الملكية الخاصة وبالقضاء عليها يمكن ان يفتح الطريق امام القضاء على الشر .

لقد كان شعار تلستوي ، مع بعض المغالاة طبعاً ، ان على الكاتب « ان يسير وراء بطله لاأمامه » . ومعنى ذلك ان لايتدخل الكاتب تدخلاً فظاً في سلوك أبطاله ، وإلا فان مثل هذا التدخل يحمل في طيـــاته خطر مسخ شخصية بطله وإفراغها من الحقيقة الحياتية . ويعرف تاريخ الأدب الكثير من الشواهد على هذا الصدام المحتمل بين ايديولوجية الكاتب والواقع فحين بدأ تلستوي كتابة روايته المشهورة « آنا كارينينا » كان في قصده ، وقد اعترف هو بذلك ، ان يعاقب آنا على تصرفها واندفاعها مع هواها وكانت شخصيته كارينين ، زوجها ،

في المسودات الأولى تنبض بالنبل والشرف وسعة القلب والفكر . لكن تلستوي بحسه الفني المرهف شعر بأن مايريده مغاير للواقع فانتهى من روايته الى مانعرف من عطف على آنا لابل الى نوع من الغفران لهـا والى إدانة قاسية لكارينين وكل مايمثله .

ان وجود ايديولوجية موضوعية لدى الفنان يساعده ، بالطبع ، على رؤية حقيقة الحياة. ولهذا أثره الطيب في الفن لكن هذه الايديولوجية ، مع كل موضوعيتها وعلميتها ، لايمكن أن تكون البديل عن الوعي الفني او الضمانة الكافية لنجاح العمل الفني . وكم يعرف تاريخ الأدب من هذه الامثلة التي ركن فيها الادباء الى نظرة اجتماعية قد تفسر الكثير الكثير من نواحي الحياة وفي وعيهم أن هذا يكفل لهم الرؤية الفنية الصحيحة ، متناسين أن أي نظرة اجتماعية مهما تكن متكاملة وصحيحة لايمكن ان تلم بخلجات النفس الداخلية وتفاعل الانسان المتميز مع الأحداث. وغفلوا أيضاً عن أن يذكروا أن اي فكر مهما بلغ من تقدميته وامتداد آفاقه لايمكن أن يقف عند منجزاته وإلا تجمد . فالفكر التقدمي أشبه مايكون بانسان يقف في مقدمة السفينة . إنه يرى دون شك أكثر بكثير ممن يقف في المؤخرة لكنه، قطعاً، لايرى كل شيء إن آفاقاً رحبة تتكشف أمامه كل لحظة ولججاً عميقة تصطخب وقد يحدث ان تهب انواء تضيع معها الاتجاهات وتطفأ النجوم . والعاصم الوحيد في هذه الأحوال هو الحس الفني السليم . أقول هذا وأنا اقصد فترة معينة من أدب الاتحاد السوفياتي كثر حولها كلام من يسمون أنفسهم اصحاب الفن للفن على اعتبار أنهـا النموذج الكلاسيكي للفن الملتزم . أقول ذلك لا لأناقش تدني مستوى كثير من هذه المؤلفات ولكن لأوكد مرة أخرى ان السبب في ذلك يعود، بالضبط، الى فقدان الدفعة الحياتية،

الى سكب الحياة في قوالب معدة اعداداً نظرياً مسبقاً دون اي مشاركة ايجابية من قبل المؤلف ليصوغها، الى حد ما ، على مثاله هو .

ان الكاتب القصصي الناجح يستطيع دوماً باختياره لموضوعه ومادته الحياتية وبتصويره لنفسيات أشخاصه وخصوصاً من يكون الأقرب منهم الى قلبه وبروح روايته Pathos أن يحدث انطباعاً – إن لم يكن تصوراً – عن الحياة وعما يحب منها او يكره وعما يجب أن تكون عليه أو لاتكون .

أما ظهور الالتزام في الشعر الغنائي فأسهل منه في القصص . ذلك **ان موضوع هذا الشعر** ، على حد تعبير هيغل ، **هو ذات الشاعر** ، عالمه الداخلي أي علاقته الخاصة بما هو خارج عنه (الاحداث ، الظواهر ، الاشخاص) . والآداب حافلة بالامثلة الساطعة على ذلك نكتفي بذكر المواقف المتباينة لشعراء بني امية والخوارج ولشقي الحركة الرومانسية الأدبية انطلاقاً من مواقف اجتماعية متباينة .

أما السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هنا فهو : هل يمكن ان تكون عواطف انسانية ازلية كالحب والصداقة مثلاً مادة لشعر ملتزم ؟

من البديهي ان مجمل العواطف الانسانية ، وان كانت مطلقة في وجودها كما اسلفنا ، الا انها تولد في مناخ اجتماعى وفي جو نفسي معين وهي كذلك تستطيع ان تحمل في ذاتها صبغة اجتماعية أو دعوى مثل معينة . وتقدم الحياة كما يقدم الادب امثلة تقطع بصحة ذلك (حب الوطن ، بغض الظلم ، تعشق الحرية الخ ..) حتى ان وصف الطبيعة الذي يبدو اكثر المواضيع حياداً في هذا المجال قد يصبح وسيلة للتغني بالوطن او حتى اكثر من ذلك ، قد يصبح تعبيراً عن موقف اجتماعي . ولنذكر على سبيل المثال من عرفوا في

انكلترا في الثلث الاول من القرن التاسع عشر بشعراء البحيرات ، ألم يكن شعرهم « الوصفي البحت » احتجاجاً على بدء سيطرة الآلة على انسان ذلك العصر؟ لكن ذلك لا يعني مطلقاً أن أي شعر غنائي كالتغزل بامرأة أو وصف منظر طبيعي يجب ان يحمل في طياته بعداً اجتماعياً . وللحكم على شاعر ما يجب أن نأخذ شعره ككل ونستشف من خلال السطور روحه . والشاعر الفذ هو من يستطيع ان يكشف من خلال تجربته الخاصة تجربة عصر وفئة لا بل أمة وأن يجعل من صوره الشعرية انعكاساً خلاقاً ، خاصاً به ومتميزاً ، لهذه الاحداث والمثل والتطلعات .

* * *

أما بعد فهذه نقاط نعتقد أنها قد تلقي اضواء جديدة على موضوع هو من اهتماماتنا الأدبية في الطليعة . وطموح هذه الكلمة الوحيد ، إن كان لها أن تطمح الى ذلك ، هو أن تثير فينا الرغبة في توضيح متزايد وأكثر عمقاً وشمولاً لهذه المقولة الأدبية . وفي هذا المجال لن نطلب من أدبائنا ، ولا يحق لنا ان نطلب منهم ، إلا شيئاً واحداً هو الاخلاص مع انفسهم ومع الحياة ، مع الفهم الصحيح لمعطيات حياتنا المعاصرة ، وان يصبحوا بعقل وقلب مفتوحين لحركة التاريخ مع رصيد أمين لانعكاسات هذه المعطيات على نفسية إنساننا وهمومه وتطلعاته . فهذا وهذا وحده ، ، اذا ما قُرِن بصنعة أدبية راقية ، يعود بالخير عليهم كأدباء وعلى ابناء شعبنا .

ان احداثاً ضخاماً لا بل مصيرية تتفجر في حياتنا العامة ، تنعكس تمزقات داخلية عنيفة في نفوس شعبنا . كما ان هناك آفاقاً جديدة تلوح في الافق ، فمن ذا الذي يكشف عنها ويشير اليها ويكون لنا ، هو الآخر ، النجمة الهادية ؟

الشعر

قسم

د. عاتكة الخزرجي
— بغداد

أتنسى ثم تهجر أو تصدّ..؟ كلا الحالين يامولاي إدّ..!
لقينا فيك مالم يلق صبّ رويدك كم تجور وتستبدّ
وُقيتَ السوء يامولاي . قلبي عزيز وهو بين يديك عبد..!
وحقّ هواك يامولاي عندي وحقك وهو عندي لايُحَدّ
وحقّ النظرة الاولى وعهد على الشفتين لم ينقضه عهد..!
لأنت هنا.. هنا بين الحنايا وإني إثر خطوك حيث تغدو
وكُلّي بعض ملكك ياحبيبي.. أما لي فيك يامولاي بعدُ..؟

فديتك ياحبيبي بعض هذا اما للظلم بعد اليوم حدّ..؟
أنبقى لا لقاء ولا تحايا.. وتنأى ثم لا أخذ وردّ؟!

فديتك إنّ مابي فوق وصفي
كوجهك إنه في الحسن فرد
وأقسم إنّ قلبي ليس مني
واني بعض ملكك لو أُعَدّ..!

ياجرحنا الثائر

عزيزة هارون

على جراح امتي أكفكف الدموع
وأغمر الاحزان في حبي واسأل الربوع
عن عودة الطفل الى مغانيه
وعودة الحقل الى أغانيه
وأسأل الفوارس الحزينة
عن وثبة متينة متينة
لعلنا نرجعها مدينة مدينة

* * *

ياجرحنا الثائر هل عودتنا قريبة ؟
متى نشم الطيب من ديارنا الحبيبة
كم من غريب نازح يسأل عن غريبة

* * *

يسأل عن اخت له ضاعت على الدرب
يســـأل عن ســوسنةٍ ندية القلب

* * *

هل الجراح والدموع تخلقنا خلقا
فهل تظلّ للدجى أعباؤنا تُلقى
كفرت بالشرق اذا لم ينطلق شرقا

العار

خليل الخوري
- بيروت

انظر
فقد تراه فوق منكبيّ ناصباً
تمثاله
حدّق فقد تراه ملء مقلتيّ غارزاً
حباله
أو هائماً يخطر في منامي
أو جالساً يأكل من طعامي
لاتمتقعْ فربّما ابصرته يمشي معي
مقهقهاً يسد دربي هامساً في
مسمعي
ما الصمت ؟ ما السلم ؟
أنا هو الوشم

أنا أنا اللعنة والوصمة والعـــار
أنا حزيران الذي أمطاره النارُ
حتى تكون النقمة الهوجاء والثأر
ويكنسَ الأوغادَ ثوارٌ
وترجع الدارُ

أمّ الشهيد

زكي قنصل
— بونس ايرس

دعـــاه منادي الجهاد فلبّى ومنذا يخيّب داعي الجهاد ؟
قضى جده في غمار الكفاح ومـات أبوه فـــداء البلاد
فشبّ وفي نـفسه ثورة على الظلم تكمن تحت الرماد
يزيد مداها تمـادي الدخيل ويذكي لظاها انتشار الفساد

* * *

وعـاش الفتى في رعاية أمٍّ تحدّتْ لعينيه جور القضاءْ
تجوع لتدرأ عنه الهوان وتشقى لتـدفع عنه الشقاءْ
تقيه العثـــار بأهـــدابها وتخشى عليـه هبوب الهواءْ
فـكانتْ عليه جنـاح الاله وكان لديها مناط الرجاءْ

* * *

ولما دعـــاه النفير أحسّتْ كأنّ الرداءَ عليهـا كفنْ
ولـكنها احتبست دمعهـا مخافةَ يسري اليـــه وهنْ
وقالت وقـد لامها اللائمون لعينيْ بلادي يهون الثمنْ
لقـــد حقـّق الله امنيّتي يموت وحيـدي ويحيا الوطن

أغنية ماسح الأحذية

للشاعر الفرنسي
جاك بريفير

ترجمة
منى نعمة خوري

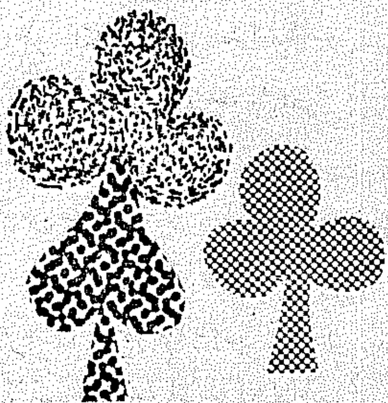
اليوم ، لم يعد الرجل الأبيض
يدهش لشيء .
وعندما يرمي للطفل الأسود
لماسح الاحذية اللطيف في « بردواي »
قطعة نقود حقيرة ،
لا يكلف نفسه عناء النظر
الى انعكاسات الشمس تشع على قدميه
وبما أنه سيضيع في حشد «برودواي» ،
ستحمل خطواته اللامبالية الضوء
الذي حبسه الطفل الأسود
كرجل مهنة حقيقي .
الضوء الصغير الهارب

الذي روّضه بلطف
الطفل الأسود ذو الأسنان الثلجية
بفرشاة عتيقة ..
بقطعة قماشٍ قديمة ..
بابتسامة كبيرة ..
وبأغنية صغيرة .
الأغنية التي تحكي القصة ،
قصة « توم » الرجل الاسود الكبير
ملك ماسحي الأحذية
في سماء « هارلم » السوداء
كل ما يلمع في الحي الأسود
هو الذي جعله يلمع
بفرشاته الكبيرة
بقطعة القماش العتيقة
بابتسامته الكبيرة
وبأغنياته .
انه هو الذي يُحيل
خف القمر القديم الى لون أبيض كالفضة ،
ويعيد البريق الى حذاء الليل المطلي
وهو الذي يضع أمام كل باب من الفندق الكبير
أحذية الصباح الجديدة .
انه هو الذي يلمّع النحاس

لجميع فرق « هارلم » الموسيقية ،
وهو الذي يغني فرحة الحياة ،
فرحة الحب ، فرحة الرقص
ثم فرحة كونه ثملاً
وفرحة الغناء .

ولكن الرجل الابيض
لا يسمع أغنية الأسود
كل ما يسمع هي الطقطقة في يده
طقطقة قطعة نقود حقيرة
تقفز دون أن تقول شيئاً
تقفز دون أن تلمع وبحزنٍ ، على قدمٍ ما

الثروة
بين
يديك



فاشتر
ورقة
من

يانصيب المعرض



السيد عبد الرحمن شيخو محمد

ماسح احذية في محلة جب القبة بحلب

رابح نصف الجائزة الأولى وقدرها

٢٥٠٠٠ ليرة سورية

من الاصدار الشعبي الثالث والثلاثون سحب ٢٠/١٢/١٩٦٧

يجري سحب الاصدار الشعبي السادس بتاريخ ٥ آذار ١٩٦٨

القصّة

أبي المتلاف وأنا

للكاتب التشيكي
جوزيف شكفورتسكي
ترجمة
وصفي البنّي

يعلم الشيطان ـ اما انا فلا ـ ما الذي جعل لبعض الناس حظاً في الحيـاة بينما لا يعرف الآخرون غير النحس . اهل الحظ لا يتساءلون عادة ، اما الذين يلاحقهم النحس فيلقون المسؤولية ، دائماً ، على شيء مـا . هكذا انا ايضاً ، وكذلك ابي الذي كان السبب في كل شيء لأنه كان متلافاً ومتبجحاً ولانـه راح ، آخر الامر ، يزدري بكل شيء .

ولكن في اي شيء كان ابي متلافا ؟ ولمـاذا يكون هذا رجل سوء ويكون ذاك طيباً حتى مخ العظام ؟

ليس في وسعي الاجابة عن هذا السؤال. ان هذا اليشيع الاسى في نفسي أحياناً. واني لاتذكر ان ابي كان يبعث بي الى صاحب الحانة «ستينر» لجلب البيرة في وقت كانت فيه مواردنا ضئيلة وامي تخيط المآزر لقاء ٥٠ قرشاً للقطعة . وان ابي كان يعدّ لنفسه القهوة بالهندباء او يتسكع في حديقة « ليتنا » او يحلم في المدينة وهو يتطلع الى واجهات المخازن .

كان هو من كوتشيري وهي من زيز كوف . حين تعارفا كان هو بائعاً في مكتبة . وما ان تزوج حتى فتح مخزناً في كارلين بالمال الذي حصل عليه من البائنة . وما مضى عام حتى افلس المخزن ، فمات جدى لامي بالسكتة القلبية من اثر الصدمة ، اذ كانت امي ابنته الوحيدة ، وكان جدي قد ظل يوفر ثلاثين عاماً من اجل ان يجمع هذه البائنة من تجارته في بقالية صغيرة . وبعد وفاة جدي بادر ابي لوضع جدتي في مأوى للفقراء ، وباع البقالية وفتح بثمنها مكتبة لم تصمد ستة شهور .

كانت اختي سوزانا قد جاءت الى الوجود ، اما انا فكنت في الطريق . وقد القى المنفذون القضائيون بأبي وامي وبسوزانا الى الرصيف ، فآل بهم الامر الى النزوح من نزل الى نزل في زيز كوف وسميشوف ومالاسترانا ، اذ لم يكن لديهم ما يدفعونه اجراً للسكنى . وهكذا ابصرت النور في نزل « آلاروز » بمدينة مالاسترانا ، حيث كانوا قد استأجروا في ذلك المساء غرفة بعشرة كورونات . ولكن لم يكن قد بقي لدى ابي فلس واحد . وحين ارادوا طرده في ظهيرة اليوم التالي ، انعم ابي على صاحب النزل ، بدل الاجرة ، بفصل مسرحي جميل . وقد كان على جانب كبير من القوة في هذا الميدان : « سانهال عليه بالسياط في الجرائد ، فأبين كيف يعاملون هنا العاطلين عن العمل » .

وخشي صاحب النزل الفضيحة ، فتركنا في سلام الى ان استطاعت امي المسير من جديد .

وبعد ذلك تشردنا وقتاً طويلاً من ساحة الى اخرى حتى القينـــا عصا الترحال في شارع سوشارسكا بمدينة ليتنا حيث مدت لنا يد العون مومس اسمها غريتا كانت امي تلعب معها الورق . وما ازال اذكر ذلك المسكن في شارع سوشارسكا . كان رقيقاً كالمعكرونة الرقيقة ، له نافذة تطل على الشارع . مقابل هذه النافذة ماكنة خياطة . والى جانب الجدار سرير كان ينام عليه ابي وامي ، وقرب الجدار الآخر فراش كنت انام عليه مع سوزانا . وكانت ثمة مشواة من الخزف الازرق ، وطاولة ، وكرسي كان ابي يجلس عليه دائماً ، يحلم ويتشاجر مع امي وهي منصرفة الى الخياطة . فلم يكن لدينا غير واحد — اود ان اقول غـــير كرسي واحد .

كان ابي جميلاً ، ولهذا تزوجته امي . ولكنه كان متلافا . فما ان عثر على بضع كورونات حتى صرفها في جولات على الصحاب . وحين كان يقدم على مخزنه كان يتدبر امره بواسطة الوكلاء التجاريين . وهكذا كان لدينا على الدوام احتياطي من الكتب الكاسدة . وحين خسر مخزنه للمرة الثانية اصابه ذلك بفورة من الجنون ، فراح يضرب امي ، وتعب من ضربها ، فجاء دورنا نحن . وقد كان ضربه لنا يزداد بمقدار ما يقل ماله . وبالاختصار ، كان ، في آخر الامر ، يضربنا كل يوم تقريباً .

ومع ذلك فقد كان في بعض الاحيـــان حزيناً ولطيفاً . واذ ذاك كان يسألني عما اذا كنت احبه ، ويداعبني ، ويثير الشفقة في نفسي . وذات يوم ، في الخريف — وكان البيت قد اخذ يبرد — صنع لي طائرة من ورق الصر العتيق

واخذني الى سهل ليتنا لتجربتها . كانت رياح تشرين تهب ، والسماء زرقاء صافية . وحيثما التفت المرء لم يكن يرى غير آباء واولاد كان مع بعضهم طائرات رائعة من ورق ناعم بشكل وجوه او نجوم متعددة الالوان ، ذات ذيول طويلة من الشرائط ، يطيّرها آباء يلبسون المعاطف الانيقة او الترنشكوتات ، فتتراقص في السماء تحت شمس تشرين ، والآباء يرخون لها الخيوط باناة .

كانت طائرتنا من ورق صر أزرق وشرائطها من ورق الجرائد. يمسكها أبي بشيء من الارتباك وينظر الى الطائرات الأخرى . وكان يرتدي صدرية ذات ثلاثة ازرار ، مفرطة الضيق بعض الشيء ، وسروالاً مفتّق الساقين . واني لاذكر كيف كان واقفاً ينظر ، بعينين حالمتين ، الى الطائرات المبرقشة وهي تتمايل في السماء ، ثم أخذ يركض بطائرتنا وأنا ألاحقه . كان يسرع في ركضه ويجر الطائرة المربوطة بخيط ، ولكن هذه كانت تأبى الانطلاق الى السماء ، فتروح تهتز وتترنح وسرعان ما أخذ أبي يلهث ، فاضطر للتوقف ، وسقطت الطائرة على الرمل في حالة يرثى لها. وتناولها أبي ، فاذا بأحد اضلاعها قد كسر نصف انكسار فحاول أبي تقويمه ، فانكسر تماماً ومزق ورق الصر الازرق ، وكان مايزال عليه طابع بريدي نصف منزوع . وظل ابي واقفاً يتأمل الطائرة وقد شعثت الرياح شعره ، ومن فوقه تتمايل في السماء طائرات حمر ، وزرق ، وخضر ، ومن حولنا يدور السادة ذوو المعاطف الأنيقة ، والبنات الشقر ذوات القبعات الحمر والبيض . فأخذت بيد أبي وقلت له : « هلم الى البيت » ، فقد كنت ارثي لحاله . ونظر ابي لحظة الى الطائرة ، ثم ألقى بها الى الارض قائلاً : « انتظري ، يالوسينكا ، حتى يصير مع ابيك نقود فيشتري لك طائرة تثير بجمالها دهشة الجميع ! » .

كان يأخذني احياناً الى المدينة ممسكا بيدي ، فنروح نتطلع الى

البضائع المعروضة ، فقد كان شديد الولع بهذا . واذ ذاك كان يشرح لي كل ما يشتريه لي حينما سيكون لديه نقود . اما انا فما كنت احب هذا . فقد كان بعد ذلك يزداد حزناً واكتئاباً ، فأنتزعه من كل واجهة مخزن . وتوقفنا ذات مرة في موستك ، امام مخزن للدمى ، كانت كلها من الجمال بحيث لم استطع صرف عينيّ عن النظر اليها . وكان ابي ، الذي أحب النظر الى كل شيء ، يتأملها معي .فقلت له: « ستشتري لي يا بابا ، دمية حين سيصبح معك نقود ، أليس كذلك ؟ » . « اكيد ، يا لوسينكا .. هذه » . ودلني على واحدة كانت مستقرة على عرشها وسط المعروضات ، ولا بد انها اكبر مني . كانت شقراء الشعر ، لابسة ثوباً رائعاً الى حد لم اكن اجسر على ان احلم به ابداً . فقلت : « ما اجملها ، انك لطيف ، يا بابا » . وكنت فاغرة فمي لشدة اعجابي . كلا ، كلا ، لم يكن في وسعي الانفصال عنها ، كانت جالسة ، يحيط بها جيش من الدمى الاخرى ، اكبر واصغر منها ، بما في ذلك دمى جد صغيرة من المطاط ، عارية تماماً ، ثمن الواحدة منها ٥٠ قرشاً . ولكن ابي لم يكن معه حتى ولا اجرة (الترامواي) .

اذ ذاك ، وقد اكتفيت بتصور أني املك هذه الدمية الجميلة ، واني سأنام معها بدلاً من سوزانا ، واني سألبسها ثيابها واخلع عنها هذه الثياب ، رن فوقي فجأة صوت غريب يقول: « أتريدين دمية ، ياصغيرة ؟ » . فرفعت عيني فاذا بي أرى سيداً على رأسه قبعة من فراء رمادي ، وعلى عينيه نظارتان ذهبيتان ، وفي يديه قفازان اصفران ، وهو يبتسم . فقلت له خائفة : « نعم » . فامسكني بيده ذات القفاز الاصفر وقال لأبي : « هل تسمح، ايها الصديق ؟» . فأشار ابي موافقا. ومضى بي السيد الى الداخل . كان ثمة من الدمى اكثر مما في الواجهة . وسارعت

الينا بائعتان ، فقال السيد . « والآن ، اية دمية ستختار ، ياصغيرتي ؟ » . وابتسم لي من جديد . كانت اسنانه جميعاً من الذهب . فاعتراني الخوف من هذه الدمى، ومن هذه الاسنان ، ومن هاتين البائعتين المموهتين بالمساحيق . واخذت الرفوف التي تستقر الدمى فوقها تتراقص امام عيني ، فاشرت الى دمية صغيرة ، لأني ما كنت اجسر على طلب الكبيرة الشقراء ، وتمتمت : « هذه » . « لا ، لا ، هذه ؟ ولكنها سوداء فحمة ! » ونظرت ، فاذا هي ، حقاً ، زنجية ، شفتاها غليظتان ورديتان ، وعيناها واسعتان . فقلت : « ولكن لأنها جميلة » . فابتسم السيد ودفع الثمن ، ثم قال : « واين ستلعبين ياصغيرتي ؟ » . فتمتمت : « في بيتنا ، في الحديقة » ، فقال السيد « طيب ، طيب » . وتناول يدي ومضى بي الى الخارج . « هي ذي آنستنا مع دميتها . انها زنجية ، ولكنها هي التي اختارتها » . وهز السيد كتفيه ، وتناول ابي يدي ، وقال وهو ينحني: «شكراً جزيلاً . في خدمتك » . ورثيت لحاله من جديد دون ان ارى لماذا . وأجاب السيد : « لاداعي للحديث عن هذا . وما اسم الصغيرة ؟ » فقال لي ابي « قولي للسيد» . فتمتمت : لوسينكا ! وعلى الفور اعتراني الخوف من السيد . « طيب ، لوسينكا ، وهل تحبين السكاكر ، يا لوسينكا ؟» فقلت مزقزقة: « نعم » . فأخرج من جيبه خمسة كورونات فضية فاعطاني اياها وقال لي مكشراً : « خذي يالوسينكا ، واشتري شوكولاته » . فقال ابي :« اشكرك كثيراً ، ايها السيد العزيز . في خدمتك » . ثم دفرني بكوعه قائلا : « اشكريه ، يا لوسينكا » . فزقزقت من جديد « شكراً » . ولكن السيد اكتفى بالقول ، وهو يرفع يده الصفراء الى قبعته «العفو ، العفو» وداعب رأسي ثم اضاف : «كلي شوكولاتتك بشهية ، يا لوسينكا ، وكوني لطيفة مع الدمية » .

كنت فرحة بالزنجية ، اما أبي فلا . فقد زجر بشيء ماثل « خنزير » او « متعنفص قذر » ، اذ لم افهم جيداً ، واخذ مني الكورونات الخمسة . ولكنه ، في المساء ، اعطاني ، كما اعطى سوزانا لوح شوكولاتة كان من الشفافية بحيث تمكن الرؤية من خلاله ، والتهمت سوزانا نصف حصتي . وبعد قليل انتقلنا الى هيلوسوفيس ، وما ذهبت بعد ذلك قط الى ليتنا ولا رأيت ذلك السيد .

وانتهت حياة الزنجية الصغيرة في ملجأ للاطفال الفقراء وضعنا فيه أنا وسوزانا حين لم يعد في وسع ابي وامي ان يحصلا على مورد للرزق ، وكانت ايفا في الطريق . فقد انحشر رأس الدمية في احد الابواب ، فتحطم ، ولم يبق منها غير الجسد الاسود . بكيت لذلك حتى مرضت من الحزن . وحين علمت سوزانا بما حدث للدمية ضربتني ايضاً . بقيت في ذلك الملجأ عاماً ونصف العام ، ثم بدأت اذهب الى المدرسة . لم نكن في صفي غير اولاد فقراء ، فطاب لي المقام هناك . ولكني كنت ذات افكار سوداء . وكل يوم احد ، كانت ماما تزورنا ، واحياناً يكون معها أبي . ولكن هذا كان نادراً . وعلى العموم ، كانت امي تقول ان بابا سافر في شغل . فقد كان يعمل وكيلاً تجارياً للكتب ، وكان يتفق له ان يغيب شهراً بكامله . وبعد ذلك يعود حاملاً قليلاً من المال . قليلاً جداً في معظم الأحوال . وكانت امي تواصل العمل في خياطة المآزر .

وبعد ذلك ارجعاني الى البيت ولم يتركا هناك غير سوزانا . ومن جديد رحت انام على فراش قرب الجدار . وفي الليل ، كلما عاد أبي من احدى سفراته ، كنت اسمع المشاجرات مع ماما . كان ابي يقسم انه لم يكن يكسب فلساً زيادة ، وامي تبكي قائلة انه ينفق كل ماله على الشراب مع المومسات . وبعد ذلك يتشاتمان تشاتم جامعي الخرق والنفايات .

وبعد حين انتقلنا من جديد الى مسكن في شارع سلافاتا ، في مكان ابعد بعمارتين ، حيث اصابني من قرص البق في الليلة الاولى ما جعلني اعجز عن الذهاب الى المدرسة في اليوم التالي .

ما كانت تطيب لي هذه المدرسة . فان فيها كثيرا من بنات الذوات . وكنت افقر التلميذات في صفي ، أنا وبنت تدعى فلاستا ماريتشوفا . كانت امها من بنات الشارع وتعرف ان الاطفال لا تحملهم طيور اللقلق بل بطون الامهات . أما الأخريات فمزهوات صغيرات ، ثريات نظيفات ، تجيء بهن الى المدرسة امهاتهن ، واحيانا الخادمات ، ممسكات بأيديهن . وكان امام المدرسة درابزون من حديد تتأرجح عليه البنات في اوقات الاستراحة مابين الدروس ، وسيقانهن مرفوعة الى الفضاء حتى ليكنسن الرصيف بشعورهن . وتنزل ثيابهن الى ذقونهن فترى العين سراويلهن البيضاء او الزرقاء السماوية . ولقد كنت ، انا ايضاً، شديدة الرغبة في التأرجح ، الا اني كنت استحي لأن سروالي كان من قبل لأمي وقد رقعته لي ، وبالاصح لم يكن سوى مزق . . . وفوق ذلك فهو متسخ . وما كان لي سوى سروال واحد ، وما كان يتسع الوقت لأمي لتغسله اكثر من مرة في الاسبوع . يوم السبت . واذ ذاك ، ما كنت استطيع الذهاب الى اي مكان ، فقد كان علي ان انتظر حتى يجف .

كانت كرستينا فولهيجنوفا احسن التلميذات . ابوها مدير بنك ، ولها خادمة تأتي بها الى المدرسة . وقد كانت جميلة، وكنت شديدة الحب لها ، ولكنها لم تكن تنظر الي قط . ولانها لم تكن تنظر الي ، فقد كانت الاخريات لايكترثن بي، اللهم الا فلاستا ماريتشوفا . ولكني كنت احب كرستينا واحلم بانها قد قد تصبح صديقتي بدلا من فلاستا . كنت اعبدها ، بل ما كنت لانزعج حين

اقف امام اللوح الاسود ، بليدة ، والمعلمة توبخني ، وكرستينا ترفع اصبعها صافرة « من فضلك ، من فضلك » لكي تدعوها المعلمة ولكي يتاح لها ان تتلو ما حفظته كالببغاء . ما كنت لاغضب عليها غضبي على غيرها . وحين كانت المعلمة تذكرها لي ، كنموذج يحتذى ، كانت تبدو لي من الكمال والجمال بحيث يؤلمني قلبي .

وذات مرة ، نظمت كرستينا امسية للاحتفال بعيد ميلادها ودعت جميع البنات الا أنا وفلاستا ماريتشوفا . ولم تبال فلاستا بذلك ، اما أنا فاعتقدت تماما ان الامر سيقتلني . وفي اليوم الذي جرت فيه هذه الامسية لم استطع احتمال البيت . فذهبت الى الشارع الذي تقطن فيه اسرة كريستينا . واختبأت في زاوية باب مواجه للدار ورحت انظر الى البنات وهن يصلن الواحدة اثر الاخرى ، حاملات باقات من الزهور . ورأيتهن يختفين في الدار ، فخطر لي اني لو كنت احمل باقة لكان في وسعي انا ايضاً ان ادخل الى دار اسرة كرستينا ، ولو لم تكن هذه قد دعتني ، لكي اقدم لها تمنياتي في عيد ميلادها . وحين كانت البنات جميعاً قد دخلن الدار ، بارحت الزاوية التي كنت فيها ونظرت الى نوافذ بيت كرستينا فتمنيت لو اموت . واذا بأبي يظهر فجأة ويقف قربي ، فيسألني : « ماذا تفعلين هنا يا لوسينكا ؟ ولماذا لست في البيت لانجاز وظائفك ؟ » . وبعد هذه الكلمات اصبح الامر غير محتمل ، فاجهشت بالبكاء . فقرفص ابي بجانبي واخرج منديله ومسح دموعي ، وقال مواسيا : «مهلا ، مهلا ، ماذا جرى لك ، يا لوسينكا ؟ » فقلت منتحبة « كريستينا فولهجنوفا عندها عيد ميلاد ، وانا . . انا لا اقدر ان اذهب اليها » . فقال ابي متجهما « ولماذا ؟ » . فكدت اقول اني غير مدعوة لاني فقيرة ، ثم ادركت ان هذا يزعجه ، فقلت : « لأن ليس معي باقة . كل البنات جئن لها بباقات » . فقال ابي غير مصدق : «أهذا هو السبب حقا ؟» فقلت : نعم .

فنظر ابي الي ، وفكر لحظة ، ثم نهض وقال « انتظري هنا » ، واختفى وراء الزاوية . ولبثت واقفة انتحب بهدوء . وعاد ابي بعد لحظة حاملا باقة كبيرة من الليلك ، وقال وهو يدس الباقة بين يدي : « هاك ، وهيا اسرعي ! ». واجتزت الشارع راكضة ، وتسلقت السلم . وكانت الباقة مربوطة بخيط عتيق وسخ مما يحمل ابي دائما في جيبه ، واغصان الليلك متهدلة كأنما قطعت بكثير من العجلة . وكان ابي قد انتزع هذا الليلك من احدى الحدائق . فقد كان يبدأ ، خلف شارع بيت كرستينا ، حي من الفيللات . كنت على علم بذلك . كنت عارفة بأنها سرقة . ولكن أبي كان لطيفاً . وساد صمت رهيب حين ادخلتني خادمة اهل كرستينا الى الغرفة التي كانت البنات جالسات فيها حول مائدة عامرة ، تتبارين في الصياح ، حتى تسمع اصواتهن في المعبر . وهبت كرستينا واقفة ، وراحت تقيسني بنظرة احتقار . وشمخت بانفها الصغير و كشرت بشفتيها الجميلتين ، فآلمني هذا . واعطيتها الباقة وقلت كلمات غير مفهومة . كنت كالمصابة بدوار ، وما كنت أعي غير ان البنات جميعاً ينظرن الي فاغرات الأفواه ، و كرستينا تقول لي ان اذهب الى المطبخ ، وانها تشكرني ولكن ليس على المائدة مكان ، لأن مجيئي لم يكن منتظراً ، ولكنهم في المطبخ سيعطونني قطعة من الكاتو . وبعد ان قالت هذا ، غاب شبحها الحلو بالثوب الأزرق السماوي وسط الدموع التي كانت تملأ عيني . وتناول احدهم يدي واستاقني . ثم وجدت نفسي جالسة على كرسي صغير في المطبخ ، وبلاجينا ، خادمة أسرة كرستينا ، تضع لي الكاتو في صحن ، وأنا اشير برأسي رافضة . ولكن بلاجينا كانت تعنفني قائلة : « لا تكبري رأسك ، يا حمقاء ، والتهمي قدر ما تستطيعين . سآتيك أيضاً بالكريما ، ولا تبالي باولئك البنات » . ولكني ما كنت أستطيع عدم المبالاة بكرستينا ،

فظللت اتباكى . وحين لم اعد أطيق الاحتمال وشرعت اشهق ، جمعت لي بلاجينا صرة من الحلويات وخمس شطـــائر ، وأخرجتني من البيت . وحملت الصرة الى أبي ، فأكل . كلا ، لم يكن أبي خبيثاً ، ولكنه متلاف ومتبجح .

وحوالي نهاية الحرب ابتسم له الحظ — واذا كنت تفضل ، فسوءالحظ — اذ كان الجميع متعطشين الى الكتب ، فدبر قرضاً من مكان ما ، وفتح مكتبة من جديد . بل لقد استطاع تدبير رخصة لدار نشر . ففي آخر الاحتلال اعتقله الالمان شهرين ، فتعرف في السجن الى رجل يدعى كرتيشكا ، لديه رواية في جواريره ، وهو ينتظر ان تتحرر البلاد . كانت رواية جميلة عن المغتربين التشيك في اميركا ، ولكن نشرهاأثناء الحرب غير ممكن . وارتبط هذا المؤلف بالصداقة مع ابي في السجن ، ثم اقرضه مالاً ، بعد الثورة ، وأمن له قرضا من أصدقائه ، فطبع ابي هذه الرواية طبعة فخمة .

واذن ، فقد اصبح ناشراً . وصدرت من هذه الرواية خمس طبعات في مدة وجيزة ، وتدفقت العروض على ابي . وبعد السنوات المشوبة بالمنفذين القضائيين ، والبق ، وعلب الليل ، اخذ الناس يسمونه بـ « الناشر » . وطبع لنفسه بطاقات باسمه واوراقاً متوجة بعنوان فخم ، ابدعه رسام شهير لقاء خمسة آلاف كورون عـــدا ونقداً ، ووظف ثلاثة بائعين ومحاسبة ، صبية جميلة ، و « مديراً » . وربط السيد كرتيشكا، الذيدرت عليه روايته رأسمالاً غيرمتوقع ، بين ابي وبين سيدة من سيدات المجتمع كانت تكتب ، تحت الاسم المستعار « سكنتيلا »، روايات ناجحة للصبايا . وشرع ابي ينشر هذه الروايات في السوق . وسريعاً ما امتلأ المكتب القائم وراء المخزن بمخطوطات وبمؤلفين . وكان ابي يقضي مع هؤلاء ساعات طويلة يحدثهم احاديث الأدب ، ويسقيهم الكونياك ذي

النجوم الثلاثة يشتريه من السوق السوداء ، ويلعب دور نصير الآداب والفنون ويوقع عقوداً . كان على العموم ، لا يقوم حتى بقراءة المخطوطات ، بل يتنقل بين المقاهي موزعاً فيها بطاقاته ويجعل الناس يدعونه بـ « السيد الناشر » . كان يبدو لي انه يعيش ، فجأة ، في عالم آخر . على ان في مؤسسته رجلاً كان يشتغل في صمت ومثابرة ، هو « المدير » .

وبعد قليل لم يعد يكفيه مكتبه والمقاهي واوراقه المعنونة باسم مؤسسته فاستأجر منزلاً مؤلفاً من اثنتي عشرة غرفة على شاطيء النهر ، وشرع في تأثيثه . لست ادري كم كلفه هـــذا ، ولا ادري من كان يسكن هناك قبلنا ، ولكن المنزل كان اشبه بالقصر . في السقف نقوش من كلس ورخام ، واطر الابواب منحوتة مكسوة بالخشب . وفيه ثلاث غرف للخادمات . وكان لكل منا ، أنا وشقيقتي سوزانا وايفا ، وشقيقي روبيرت وكاريل غرفة على حدة . وكان ثمة فوق هذا ، قاعة طعام ، وصالون ، ومكتبة ، ومكتب عمل ، وقاعة تدخين ، وبهو زينة لأمي ، ومعبد . لم يسبق لابي قط ان وضع قدميه في كنيسة ، ولكنه علق في غرفته لوحة كبيرة للعذراء في اطار منحوت مذهب . وكنا ، كل مساء ، ملزمين بالذهاب اليها للصلاة .

كان المنزل اشبه بثكنة . فيه حمامان نزع منهما ابي المغطسين الحديديين العتيقين واستعاض عنهما بحوضين من الخزف جعلهما بمستوى الأرض . احدهما وردي اللون ، والاخر ازرق سماوي ، تستخـــدم في النزول اليهما درجتان صغيرتان . وفي هذا الحوض الازرق الصغير كان في وسع ابي ان يقضي اكثر من ساعة وهو يغني .

وقد وضع في رأسه ان له سمعة طيبة وان علينا ان نعيش عيشة تتناسب

معها . فسجلت سوزانا نفسها في مدرسة التجارة ، وانتقلت انا من الصف الرابع الابتدائي العالي الى الثالث الثانوي .

وشرع روبيرت في تعلم العزف على البيانو لدى استاذ في الكونسرفاتوار. ولم يعد ابي يقول ماذا سيفعل حين سيحصل على نقود . فهو الآن حاصل عليها ، وانه ليفعل كل مايستطيع .

ولكن هذا لم يدم عاماً واحداً . فقد أخذ المؤلفون يطالبون بطبع مؤلفاتهم ، وما كان ابي يملك مايدفع لصاحب المطبعة . فقد أصدر كتاباً بيعت منه خمسون نسخة . واستعادت السيدة . سكنتيلا مخطوطها بعد ان ظل موقوفاً ثلاثة شهور ، واعطته للناشر ويلميك . ورفض البنك فتح اعتماد جديد ؛ اذ كان ثمة عجز كبير في ميزان ابي التجاري . وراح موقعو العقود يتقاطرون على بابنا. ولكن ابي كان قد أصبح صفر اليدين . واختفى موقعو العقود ، واخذت تصل بدلاً عنهم أوراق استدعاء للمثول أمام القضاء . وذات يوم توارى « المدير » هو ايضاً ، مع الصندوق . وما قال أين ذهب . وأفلس ابي .

ولكنه كان منذ سنوات قد أصبح خبيراً بتدبير اموره في مثل هذه الحالات . فغادرنا تلك الشكنة المخملية الى بيت ذي شرفات في جيجكوف وفتح ابي دكاناً في كارلين . ولكنه ظل « ناشراً » لا كتبياً . ولم يكن في تلك الدكان شيء تقريباً . وحين كان يتفق ان يدخلها زبون تائه فيطلب شيئاً لم يكن مخزوناً — وما كان لدينا عملياً أي شيء مخزون تقريباً - كان ابي يطلب منه التفضل بالاصطبار قليلا ، لانه سيرسل من يجلب الكتاب من « المستودع » . وبعد ذلك يذهب الى القسم الداخلي من الدكان فيخط على عجل طلباً لنسخة ويبعث بأمي ، او بواحد منا « مناوب » ، الى المكتبة المركزية . وكان ينبغي الركض ، اذ

كان أبي ، في هذه الأثناء ، يروح يتحدث مع الزبون في الأدب . ولكن كان يتفق ان يكون الزبون مستعجلاً ، ونصل نحن متأخرين ، بلسان متدل. وهكذا يزداد عدد الكتب الكاسدة واحداً ، اذ لم يكن على رفوف تلك الدكان المغبّرة ، الواقعة خلف القنطرة ، غير الكتب الكاسدة عملياً .

ولكن ابي كان مايزال على يقين من رفعة اسمه . وكنا نعيش عيشة بؤس . صحيح اني ظللت أرتاد المدرسة الثانوية ، ولكن لم يكن لي غير فستان واحد ، واذا ماحدث شيء اضطررت للبقاء في البيت الى ان ترتقه أمي. وبصورة عامة ، كان هذا يستغرق وقتاً طويلاً ، لأن أمي كانت ملزمة بالعمل في مكان آخر فكنا نعيش مما تدر هذه الدكان فقط .

كان الأمر مع الملبس باعثاً على اليأس . فما كان لدي غير فستان واحد ، وكنت استحي من السير هكذا في الشارع . وقد كنت أذهب دائماً الى المدرسة جد مبكرة في الصباح ، وعند الظهيرة أركض مسرعة الى البيت سالكة الأزقة الجانبية لكي لايراني الناس .

ومع ذلك فقد وقعت على فتى ، وانا بهذا الفستان العتيق . كان ذلك في (الترامواي) ، وكان الفتى ذاهلاً ، أملس الشعر ، في لباس العمل الأزرق . دعاني للذهاب يوم الاحد الى جزيرة سلاف ، ورافقني حتى الباب . ومع ذلك فماشعرت بأي سرور من هذا ، بل لقد أحسست بمهانتي لاني ما كنت استطيع الذهاب الى الجزيرة . كلا ، لااستطيع الذهاب بهذا الفستان.

كان قد بقي حتى الأحد اربعة ايام . وكان الأمر يدور في رأسي دورانا لم أستطع معه الى النوم سبيلا . وأمضيت وقتاً لأجمع أطراف شجاعتي . وفي مساء اليوم التالي ذهبت لمقابلة والدي . فأصغى إليّ بانتباه ، وهز رأسه قائلًا : آسف ،

٨ *

بالوسينكا ، ليس في حوزتي مال متوفر . انتظري ، لنقل خمسة عشر يوماً . فقد باشرت لتوي عملية تجارية . وبعدها سأشتري لك فستاناً يبلغ من الجمال مايجعل جميع البنات يحسدنك عليه . كان في مخزنه المعتم ، غائراً في صدار ذي ثلاثة أزرار ، وفي عينيه الحالمتين ، من جديد ، شيء من ذلك الحزن وذلك الغضب اللذين سبق ان رأيتهما في سهل ليتنا حين وعدني بطائرة من ورق « سينظر اليها الجميع » . ولكن عينيه ، هذه المرة ، كانتا تنطويان على التعب ايضاً . وقد كان أبي يبدو لي كالمجنون حين يتحدث عن « المال المتوفر » وعن « العمليات التجارية » .

كنت أعلم ان لن يكون شيء من هذا . ولذا فقد استولى عليه الكدر . وفتشت في جميع الصناديق تحت الأسرة فلم أجد غير ملف شرائط صفراوية جاء بها ابي ، يعلم الله من أين ، واحتفظ بها . فقد كان ، مبدئياً ، لا يرمي بشيء أبداً .

كانت الفكرة سخيفة لا أثر فيها من عقل ، ولكني كنت قد جننت لفكرة ان لديّ موعداً واني لا استطيع الذهاب اليه . وهكذا خطت لنفسي من ملف الشرائط هذا فستانا ما كان في وسع خياطة محترفة ان تخيطه . ولكني كنت في الخامسة عشرة من عمري ، وكان ذلك أول موعد لي ، وكنت في حالة من اليأس .

جعلت الفستان مكشوف الصدر والظهر يمسك به على كتفي شريطان من هذا الملف . وما كان ذلك بدافع من الافراط في الاناقة ، بل لاني ما استطعت اكمال القسم الاعلى منه على غير هذه الصورة . وما كانت النسوة ، في ذلك الحين ، يرتدين في الصيف فساتين حاسرة الصدر والظهر . وفي الحق ، لقد كان فستاني ذاك كيساً بدون قعر ، ولا بهرج ، رهيب الصفرة . وشعرت

بقلبي يتوقف حين انتهيت ونظرت الى نفسي في زجاج النافذة المفتوحة ، اذ لم يكن لدينا مرآة . كان الفستان رهيباً ، رهيباً ، حتى لقد اغرورقت عيناي بالدموع . وتأكدت من اني لا استطيع الخروج به . واذ ذاك جاءني اليأس بفكرة لانقاذه . ينبغي رسم صورة عليه ، على ان تكون صورة خارقة للعادة ، لاصورة زهور لطيفة او مايشابهها ، صورة شيء يفقأ العين ، من اجل انقاذ هذا الفستان . وكان ذلك العهد عهد ربطات اعناق الرجال المزينة برسوم يدوية ، عهد الكاوبوي واللوكي سترايك . ولقد عمدت انا الى صنع قالب مفرغ من كرتون لقدم بحجمها الطبيعي ، ودمغت بها كل الفستان باصبغة الاعلانات .

وبعد ظهر الاحد ، حين بارح ابي البيت الى المقهى وذهبت امي في زيارة لبوابة العمارة ، ارتديت الفستان من جديد ، وفتحت النافذة . في الساحة ، خارج المنزل ، كان الجو ربيعاً ، والشمس ساطعة . ونظرت الى صورتي في النافذة . كانت رهيبة حقاً . وما كان ذلك بسبب الدمغات على الفستان . فلو انها كانت مطبوعة وفق اصول الصبغة لكان يمكن ان يحدث ذلك شيئاً مثيراً يسترعي الانظار . ولكن ذلك لم يجر حسب الاصول . فقد كانت الاصبغة طافحة عن الحدود ، وفي كل مكان خطوط حمراء . فقد كانت الشرائط حمر الحواشي ، وهكذا كان الفستان يبدو وسخاً .

ولكني كنت من جنون الرغبة في الذهاب الى الموعد بحيث اعتقدت آخر الامر ان الفستان مناسب وان في وسعي الخروج . وطرت من البيت . وفي الزاوية ، وقعت على شرطي ، فقال لي بقسوة « الى أين انت ذاهبة هكذا ، ياسيدتي الصغيرة ؟ ثم نظر اليّ من قرب اكثر وحملق عينيه فقال : « ليس هذا وقت الكرنفال ، يا آنسة ! ارتدي من فضلك ، مايليق من الثياب حين تكونين في الطريق العام » .

اذ ذاك ادركت ان ملبسي غير مناسب ، وان في تصرفي محض حماقة لامزيد لها . فغرقت في بحر من الخجل ، وقفلت راجعة ، راكضة الى البيت ، كأن ذلك الشرطي يلاحقني . وخلعت الفستان ، واجهشت بالبكاء . وفي الساعة الخامسة كنت ما ازال ابكي حين انطلق صفير تحت شرفتي . كان ذلك فتاي الذي التقيت به في الترامواي ، ولكنه كان هذه المرة يرتدي ملابس متأنقة ليوم الأحد . وكنت من شدة اليأس بحيث لا ابالي بشيء . فلبست على عجل فستاني الوحيد المهترىء ، ملبسي في جميع الأيام ، وذهبت معه الى حديقة فيتكوف . كان في حيرة من امر هذا الفستان ، ما ينفك ينظر اليه ، ولم يعد يقول كلمة عن جزيرة سلاف او عن الرقص . جلسنا على احد المقاعد ، فلم يبادر حتى الى الامساك بيدي ، بل اكتفى بالتدخين . وحكي شيئاً عن منزل ريفي للاصطياف في ميدنيك وعن رهط صحابه ، ولكنه كان يتكلم لمجرد الكلام ، ثم صمت كلياً وشرع يرسم صوراً على الرمل بنعليه المطاطيين الضخمين . ثم سألني عما اذا كنت غير مهتمة به ، ما دمت لم أجيء الى الموعد . وقال انه لم يعتد على ان يعامل معاملة العجل ، واذا كنت غير راغبة في الرقص فلن يجبرني على ذلك ، ولكنه لم يخلق للثرثرة في الحدائق ، واما اذا كنت راغبة ، ففي وسعي الذهاب معه الى المنزل الريفي ، وان علينا الآن ان نرفع الجلسة ، او ان علي ان اعود الى البيت لارتدي لباساً لائقاً ، وبعد ذلك نذهب الى جزيرة سلاف . واذ ذاك — ويعلم الشيطان لماذا — اخذتني سورة من الغضب عليه ، رغم ان ذلك كان موعدي الأول . وطرحت في وجهه قولي اني ما جئت لاني لا املك فستاناً آخر ، وان ليس في وسعي الذهاب الى اي مكان معه لاننا لا نملك نقوداً . كنا جالسين في الحديقة . الفتى في حيرة من امره ، وانا ارتعد من

الغضب ، وبودي لو امزق صدريته المربعة المدعوكة او ابعثر شعره الملمع بالدهن . ولكني كنت اعرف انه غير مسؤول عن كل هذا ، واني لا املك فستاناً ، واننا فقراء، وان كل شيء كان من الحمق بحيث لم يكن حتى ابي المجنون مسؤولا عنه ، ولا كان احد مسؤولا عنه ، وان الامر كان هكذا ، مثلما لم تكن اموراً اخرى هكذا ، واني ما كنت بقادرة على تغيير شيء . وقد قلت اني اريد العودة الى البيت لاننا نتعشى في السادسة مساء ، وانصرفت . وكان العشاء خبزاً وقهوة . وحين زال غضبي ، انتظرت لارى ما اذا كان الفتى سيظهر ، ولكنه اختفى كانما غارت به الأرض .

هكذا كانت الامور تسير من سيء الى اسوأ ، حتى ابتسم الحظ لأبي من جديد . وما كان يشك في ان هذه هي المرة الاخيرة . فقد تعرف في احد المقاهي بغني خبيث الف ديوانا من الشعر ، وكانت تعذبه مسألة ما اذا كان ينبغي نشر هذا الديوان ام لا . وقد اذهله ابي ببلاغته المجربة ، واثبت له انه عبقري . وكان الخبيث قد اصيب بالضريبة على اصحاب الملايين ، فاقترض ابي منه شيئاً من المال وسارع لاعداد طبعة فخمة مصورة بالالوان على ورق صقيل ، واصدر منها خمسين نسخة مرقمة ، من ورق ممتاز تحمل توقيع المؤلف .

ثم انقلب الحظ من جديد ، فوقعت احداث شباط ، وتوارى السيد المليونير ، وصدر ديوانه ، ولكن ابي لم يستطع ان يدفع للمطبعة . ولم تبع نسخة واحدة . وهكذا افلس ابي للمرة الاخيرة .

كان الامر فوق المحتمل حتى بالنسبة اليه . فقد اغلقت دكانه ،ولبث في البيت ، كما كان من قبل في شارع سوتشارسكا في ليتنا، جالسا على الطاولة يشرب القهوة بالهندباء ، يدخن . ولكنه لم يعد يحلم ،بل يحشرج . وقد كان يوجه

كل ماتجمع في حياته الخائبة من حقد وغضب ضد رجال شباط ، معتبرا اياهم مسؤولين عن اختفاء آخر نصير للآداب والفنون لديه ، الشاعر المليونير .

في ذلك الحين ، كانت سوزانا قد بدأت تكسب مورد رزقها ، والعائلة كلها تعيش من اجرتها ومما كانت امي تلتقطه هنا وهناك من شغل الخياطة ، او من بعض المرابح النادرة التي كان ابي يجنيها من السوق السوداء . ولقد كان ابي يقول : اني لا احرك خنصرا في تأييد هذا النظام . ولقد اوفى بكلامه من هذه الناحية . ومن جديد كنت غالبا ما اسمع المشاجرات . فقد كان ابي يوبخ امي لأنها لاتفهمه ، ولأنها لم تفهمه ابدا ، ولم تظهر ابدا اقل دلالة على التفهم لمطامعه . وكانت امي تلومه على شطارته وتبجحه . وكان الغضب يبلغ بأبي احيانا مبلغا يجعله يهب في صميم الليل فيغادر البيت .

ثم اختفى ذات يوم ، مخلفاً كلمة تقول انه مسافر للعمل الطوعي في الغابة . وقد بدا لي أمراً طريفاً بعض الشيء ان يريد العمل فجأة للشيوعيين الذين كان ماينفك يشتمهم . ولكني اعتقدت أنه انما يريد مجرد السفر . ومضى شهر دون ان يصدر عنه مايشير الى انه حي ، فاستطلعت أمي الأخبار من دائرة الشرطة ، فقيل لها ان أبي قد بدأ العمل فعلاً ، ولكنه تركه منذ خمسة عشر يوماً .

وجرى تحقيق ، واستجوب الحطابون الذين كانوا معه . وانتظرنا ، ولكن أحداً لم يعلم شيئاً ، وظللنا ننتظر . وبعد قرابة عام ، تلقينا منه رسالة من أوستراليا . وهو الآن مايزال هناك . لست أدري ماذا يفعل هناك . فهو لم يكتب لنا قط عن هذا . ولكنه ، من حين لآخر ، يرسل سخافات : صرة صوف ، او شوكولاته تصلنا خالية من كل نكهة ، او علبة سيكارات ، او جوارب نايلون . ربما هو يكدح هناك ، او لعله مستسلم للكسل ، لامال لديه . في احدى رسائله

يوبخنا جميعاً ، قائلًا : اننا لم نفهمه قط ، ويشتمنا خبط عشواء ، نحن ، والمنافسة ، والشيوعيين ، ويبلغنا عن كل ماسيفعل حين سينهار الوضع عندنا ، ويعود هو . سيري الناس جميعاً . ماذا ؟ انه لايقول ماذا سيريهم .

ويحدث ايضاً ان يرق قلبه ، فأتلقى رسالة يستهلها بـ «عزيزتي لوسينكا» ، ملأى بالذكريات والدموع ، مرفقة بـ « سخافات » شاذة : جوارب نايلون رسمت على كعابها قلوب صغيرة ، او أقراط رهيبة الذوق الى درجة صارخة .

ولكن ماذا يستطيع ان يعرف عما هو جميل ؟ كانت هذه حال ابي منذ عشر سنين ، وقد تغير كل شيء . لم يعد لدينا مخزن ، ولم اعد أنا اركض لجلب الكتب من المكتبة المركزية ، من اجل الا يظن الزبائن ان مخزننا شبح . اني اشتغل ، وكذلك سوزانا . وقد تزوجت ، ولها بنت غير محتاجة لأن يشترى لها الدمى سادة غرباء . وحين اتذكر ثوبي الوحيد ، وزنجيتي التي هلكت في باب ملجأ للاطفال الفقراء ، والمومس غريتا التي اعدمها الألمان رمياً بالرصاص ، يخيل الي ان كل هذا حكاية رواها لي احدهم ، وان لا علاقة للامر بي . ولكن انا التي كنت هكذا ، وهذا الأب الشاطر المتبجح انما كان ابي أنا . وحين اتذكره ارى ايضاً الطائرة المصنوعة من ورق الصر الازرق التي ابت ان تطير لأن ورق الصر مفرط بالثقل ولا تصنع منه الطائرات . كما تذهب بي الافكار الى احزانه واحلامه والى مشاريعه التي لم تتحقق قط . واتذكر كيف كان يتشاجر ، وكيف كان يضربنا ، وكيف هجرنا جميعاً آخر الامر . لعلنا ، والله اعلم ، لم نكن نفهمه حقاً . ولعله لم يكن خبيثاً ، ولكنه غير ذي حظ في الحياة . الشيطان يعلم ما السبب في ان لاحدهم حظاً في الحياة ، والآخر لاحظ له . لعل الشيطان يعلم ذلك . اما انا ، فلا .

بيل هاري

للكاتب السوفييتي

أغيين يفتيشنكو

ترجمة دلال حاتم

— ٢ —

... كان نابليون يرتدي بنطالاً من الشاموا ملتصقاً بفخذيه ، ويرمق بنظرة متعالية من منظار مقرب تحركات جنوده . أما حصانه الأصهب فوقف يرفس بقوائمه نافذ الصبر . كان نابليون فخوراً بنسوره ، وأزاح عن عينيه المنظار المقرب وحرك يده بطريقة ملكية ،فبدأت العصي تعزف على الطبول الناصعة البياض لحن النصر ، وتقدم المشاة الامبراطوريون باتجاه العدو : التمعت أزرار البزات العسكرية ، وتدافعت أقدام الجنود محافظة على وحدة الصف ، وارتفعت السيوف فوق القبعات الأنيقة ، كانت السيوف تلمع بزرقة خاطفة في أيدي فرسان الحرس الشجعان ، وشمس اوسترلتز تلقي بأشعتها على الوجوه التي لوحتها شمس مصر .

وقال الياباني وهو يبتسم ابتسامة حزينة

ـ إنها حرب جميلة ، لم يحدث مثلها في هيروشيما .

فأضاف جريفز

ـ ولا في بيرل هاربر ، ولكن هذه الحرب النابوليونية لم تكن قطعاً كما يعرضها لنا هذا الفيلم ، وأعتقد جازماً أن حربنا أيضاً لن تبدو جميلة في نظر أحفادنا عندما سيقارنونها بحربهم .

سأل الياباني

ـ هل تعتقد أن حرباً جديدة ستقع ؟ .

أجاب جريفز

ـ أنا لست نبياً ، ولكن لا أحد يثق بأحد كما يبدو . ان الروس لايثقون بنا ، ونحن لانثق بهم ، والآخرون لايثقون بنا ولا بالروس وهكذا . الجميع يعملون للأفضل والأفضل دائماً ، وفجأة تندلع الحرب .

ـ بالمناسبة ، يوجد روسي مسافر على هذه الطائرة ، انه شاعر معروف ، ولكنني لاأذكر اسمه ...

ولم يتابع جريفز الحديث ، وانما راح ينظر باهتمام الى الركن الذي جلس فيه الروسي . لقد عرف وجهه من خلال الصور التي شاهدها في الصحف ، ولكنه لايستطيع أن يتذكر اسمه الذي ينطق بصعوبة ، كما أن جريفز لم يقابل حتى الآن إلا روسيين في ثيابهم الرسمية ، وهذا يختلف عنهم تماماً .

... كان جريفز يسبح في مياه الايلب .

لم يكن يستعمل الا ذراعاً واحدة ، أما الأخرى فأمسك بها زجاجة بوربون أخذها من و . كيللي الرقيب الأحمر الشعر . كان الماء بارداً ، ولكن جريفز لم يهتم بذلك ، كما لم يهتم مئات الاميركيين والروس الذين يجتازون النهر ليلتقوا معاً . لقد انتهت الحرب ، وصار بامكان الجميع أن يتمددوا ويشربوا على أشلائها .

وعلى ضفتي النهر ، وقف الجنود يطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجاً ، ويقذفون الاشرطة الورقية الى سماء لاطائرات فيها . واندفع سائق شاحنة عجوز نحو جريفز ، وامتدت أيدي الجنود الروس الجالسين في الشاحنة الى جريفز ، وسحبوه اليهم ثم انهالوا عليه تقبيلاً .

وقال أحد الجنود وهو يصافح جريفز

ـ أميركا ! أيها الأبناء . اعطونا للشرب نخب أمريكا .

وقال جندي آخر يحمل آلة أكورديون

– ماذا أعزف لك أيها الاميركي ؟،

وتقدم صف ضابط مسن ويشبه صاحب مزرعة تكساسي . فألقى معطفه على جريفز وقدم له زجاجة :

– ياالغلام المسكين ، إنك متجمدمن البرد ، ادفيء احشاءك ، ياأخي الصغير ...

وشرب جريفز جرعة وتمتم « انه كحول صاف » . وأطلق الروس ضحكة ، وضربوه على ظهره بقبضاتهم ، والتقط جريفز أنفاسه بصعوبة وضحك أيضاً ، وقدم لصف الضابط زجاجة البوربون .

وأمسك هذا الضابط زجاجة البوربون ، ومسح عليها بيده بحنان

– هيه ! ومعها مفتاح خاص ... ياالتقدم الفني !

ودارت الزجاجة على الجنود . وقال رقيب وهو يمسح شاربه

– انه يشبه نوعاً عندنا ، ان نسبة كحوله أعلى ، ولكنه أقل تأثيراً .

وقال الشاب ذو الأنف الأقنى :

– ولكن ، قل لنا ، هل أنت أميركي رأسمالي ؟ رأسمالي .

ولم يفهم جريفز الا كلمتي « امريكا » و « رأسمالي » ، ومع ذلك حك رأسه سعيداً فقد فهم أخيراً كلمتين

وأعاد الجندي ذو الأنف الأقنى سؤاله وهو يرمقه بريبة وحذر

– أنت رأسمالي ...

وهز جريفز رأسه نفياً

– كلا ، كلا ، لست رأسمالياً . انني رسام .

ووضع جريفز يده في جيبه بحثاً عن أوراقه ، ولكنه تذكر أنه فقدها ، فأخذ حافظة أوراق ضابط شاب يرتدي بزة جديدة :

– أريد ورقة ، أعطني ورقة .

ونظر اليه الضابط بحذر وتمتم

– ماذا يريد من حافظة أوراقي ؟

وقال صف الضابط

– لقد فهمت أيها الرفيق الضابط ، إنه يريد ورقة ؛ يريد ان يكتب اسمه .

وقدم لجريفز ورقة وقلماً ، وبحركة واحدة رسم وجه صف الضابط وقدم له الورقة .

إنها تشبهني .. ان هذا الاميركي يجيد الرسم .

وقال الجندي ذو الأنف الأقنى :

– آه . آه ! اذا لم يكن رأسمالياً ، فلا بد أنه عاطل عن العمل .

– وكيف عرفت أنه عاطل عن العمل ؟

– في أمريكا ، إما أن يكون الانسان رأسمالياً ، أو عاطلاً عن العمل .. !

وقال صف الضابط وهو يلقي نظرة سريعة على جريفز

– لاتقل مثل هذه السخافات . من اذن يصنع الآلات ، ويزرع القمح عندهم ؟ إنه ينتعل حذاء جيداً ... حذاء من نوع جيد .

ونظر جريفز الى ساق صف الضابط ، كان هذا أيضاً ينتعل حذاء من الجلد ، ولكن إحدى الفردتين قد سقط نعلها فشدت الى الحذاء بسلك من النحاس .

ووضع جريفز ساقه الى جانب ساق صف الضابط : إن قياس قدميهما واحد ،،

ثم انحنى وبدأ يفك رباط حذائه بسرعة .

وقال الضابط الشاب غاضباً :

- ايها الرفيق - انه يعتقد انك تريد ان تبادل حذاءك معه .

– انه يفعل ذلك عن طيب قلب ، ومع ذلك امسك صف الضابط بيدي جريفز في الوقت الذي بدأ فيه يخلع حذائه .

– هذا غير مناسب ، ايها الصديق ، بسبب الزي الرسمي . انك تنتعل جزمة عالية بينما ننتعل نحن حذاء عادياً .

وأمسك الجندي ذو الانف الأقنى الاكورديون وبدأ يغني مقلداً صوت امرأة ، وانظاره لا تتحول عن جريفز

كلا ، ان هذا الروسي ، الذي يجلس الآن في احد مقاعد الدرجة الاولى في هذه الرحلة الجوية سان فرانسيسكو – هونولولو ، لا يشبه في شيء ذلك الجندي . انه ينتعل حذاء من جلد الغزال ، ويرتدي ملابس على الطريقة الاوربية ، او بالاحرى الاميركية ، فربطة عنقه لا تنسجم مطلقاً مع سترته .

كان الروسي نحيلاً ، أنفه كبير كأنف بينوشيو في القصة الايطالية ، وفي عينيه المتألقتين الواثقتين شيء من الطفولة . ويبدو انه في هذه الطائرة يشعر وكأنه سمكة في الماء إنه يدخن سجاير « الكانت » ويتكلم بحرية وبلهجة انجليزية راقية مع المضيفة .

وقال جريفز للياباني

- انه ما يزال شاباً ، ماذا يعرف عن الحرب ؟ .

— لقد فقدوا عشرين مليوناً من الناس . حتى الاطفال في تلك البلاد ، يعرفون عن الحرب اكثر مما يعرف الكبار في امريكا .

واحس جريفز انه طعن في الصميم من هذه الملاحظة ، ولكن واثق في نفس الوقت ان الياباني ليس على خطأ . ان قليلا جداً من الاميركيين شاهدوا بأم أعينهم بيرل هاربر . وفي الواقع ، ان الحرب لم تمس الاميركيين في عقر دارهم . وربما هذا هو السبب في أن بعض الاميركيين لا يدركون مطلقاً خطر لعبة الحرب التي يلعبونها .

وتمتم قائلاً

— انك على حق ، لقد انقذ الروس السلم ، وساهمنا نحن ايضاً في هــذا العمل .

وشعر جريفز برغبة قوية لتبادل الحديث مع الروسي ، صحيح انه مازال شاباً في مقتبل العمر ، ولكنه روسي على كل حال

وامسك جريفز قدح الشمبانيا واقترب من الروسي ، وببراءة ، رفع الروسي الى جريفز عينيه الزرقاوين المتألقتين .

« لابد انه ظن انني سأقدم له تحياتي ، واطلب اليه ان يوقع لي على الاوتوغراف ، انني لا اذكر حتى اسمه ، ولكن هذا لا يهم » .

ورفع جريفز رأسه قائلاً

— نخب الايلب .

— حسناً ، اننا نذكر الايلب دائماً .

ولاحت هذه الجملة لجريفز مضخمة جداً . ماذا يمكن ان يذكر هذا الشاب عن الايلب ، وهو الذي لم تظهر لحيته بعد ؟ ان الرجال الذين كانوا في الايلب يصلح كل واحد منهم ان يكون اباً لهذا الغلام .

— ومع ذلك اقترب جريفز من الشاب وسأله

— ما هو رأيك بالاميركيين ؟ .

وابتسم الروسي ، لابد انه سمع هذا السؤال عدة مرات

— في طفولتي ، كنت اكره الاميركيين .

وفكر جريفز

« آه ! لقد عودوهم على ذلك ، كما عودونا نحن منذ زمن على كراهية الروس . الأفضل والأفضل دائماً ! » .

— كنت اعيش في سيبيريا اثناء الحرب . وقد وصلتنا من امريكا علب اللحم

المحفوظ ، اما من جهتنا فكانت تصلنا اخبار الموت . كنا ننتظر ان تفتح جبهة اخرى ولكن دون جدوى . ان الوضع كان كما يلي : معلبات اميركية ودم روسي .

كان بود جريفز ان يذكره ببيرل هاربر ، وان يبرهن له ان الاميركيين كانوا يقتلون في جبهات اخرى ، كان يود ان يقص عليه كيف مات و . كيللي وهو يصنع اجمل افاعيه الورقية ، وكيف غرقت المعدات الاميركية وهي في طريقها الى مورمنسك . ولكن جريفز لم يقل شيئاً من كل هــذا ، بل عادت الى ذاكرته صورة انهيار معمل المعلبات الذي يملكه والده اثناء الحرب . وشعر جريفز انه مذنب ، لا امام هذا الشاب ولكن امام صف الضابط الذي كان ينتعل حذاء بالياً يربطه بسلك من النحاس .

— نعم ، كان بامكاننا ان نفتــح جبهة ثانية ، لقد ايد كثيرون منا هذه الفكرة .

وتابع الروسي :

— انني قانع الان ، انه ليس هنالك بالواقع ، اميركيون ، ولا روس ، ولا حتى يابانيون ! ان الفكرة المسيطرة هي اننــا نعيش منفصلين عن بعضنا وفي بلاد مختلفة ، والواقع ان الحدود الحقيقية التي تفصلنا ليست الحدود التي تفصل البلاد عن بعضها ، بل التي تفصل الناس .

« اللعنة على اللغة الانجليزية ، انها تضطرني للبحث عن الكلمات . ولكن ربما ليس للغة اي دخل في عدم وضوح فكرتي وتأخري عن حضور المؤتمر الصحفي . ما الذي يدفعني لحضور هذا المؤتمر ؟ يبدو انه محارب قديم ويعرف اكثر مني الاشياء التي يمكن ان اقولها له ... » .

وظلت نظرات الروسي في تلك الفترة مثبتة على جريفز .

ولمح جريفز على سترة الروسي شارة كتب عليها « الأفضل والأفضل دائماً » — انها نفس الشارة التي رآها على صدر الفتاة ذات الشعر الذهبي — فسأله :

— من اين حصلت على هذه الشارة ؟

— لا اذكر من الذي علقها على صدري ، ولكنني اجد الأمر مسلياً .

— لا اعتقد اننا سنجده هكذا اذا فكرنا فيه ، يجب الا نفعل الأفضل والأفضل دائماً . هذا هو مصدر المأساة ، فمن هذا الشعار وجد انسان مثل نابليون ، ربما كنت غبياً ولا افهمك . ولكن هــذا ما خطر لي صباح اليوم وانا اشاهد الشارة على صدر احدى الفتيات .

« لقد قدمت له الآن نصيحة ، ليس هنالك انسان ليس واثقاً من لاشيء في هذا العالم ، وغالباً ، يحاول كل منــا ، ان يظهر نفسه بمظهر العالم بالأمور اكثر من جاره ،

وان يعطي دروساً للآخرين . ويبـــدو اخيراً ان الجميع يريدون ان يفعلوا الأفضل والأفضل دائماً » .

ورفع الرومي الشارة عن صدره وهو يقول :

– انني افهمك جيدا

وأتاهما صوت المضيفة

– يرجى من المسافرين ان يجلسوا في اماكنهم ، سوف نهبط بعد قليل .

وجلس جريفز الى جانب الياباني ، وخامره شعور بأنه نسي ان يقول شيئاً هاماً للرومي ، وان هذا الأخير لم يقل له كل شيء ايضاً ، ولكن فات الوقت الآن ، وبدأت الطائرة تهبط نحو الارض . واقتربت من جريفز المدينة التي شهدت طفولته : هونولولو بمبانيها البيضاء المتناثرة على الشاطيء ، وشعر جريفز انه خرج من الفخ ، وان جسده ينضح بالعرق ، لابد ان الطقس حار .

واحاط بعض الطلاب من هاواي بالشاب الرومي : كانوا يمسكون بأيديهم كتباً صغيرة الحجم تحمل اسمه ، واقتربت بعض الصبايا بأجسادهن التي لوحتها الشمس وعيونهن الواسعة ووضعن حول عنق الرومي العقود التقليدية لجزر هـــاواي ، بينما ركع ممثلو الصحافة على ركبهم يلتقطون الصور .

وتقدم بعض ضباط البحرية الاميركية من اليـــاباني وصافحوه بحرارة . لم يشعر جريفز بالغيرة من كل ماحدث ، ولكنه أحس بنوع من الألم اذ لم يجد احداً بانتظاره . وللمرة الاولى في هذا اليوم تذكر انه هرب من منزله بعد نقاش مع زوجته . ليس مهما من كان على خطأ او على صواب ، اذ لم يعد هنالك مجال للتفاهم بينهما . وهاهو يجد نفسه وحيداً في هونولولو .

وذهب جريفز الى وكالة آفيس واستأجر سيارة بلايموث واتجه الى المدينة .

انسابت السيارة في خضم من السيارات المتعددة الالوان ، وفوق طريق زرعت على جانبيه اشجار النخيل . وعادت الى مخيلته ذكرى الايام الماضيه ، عندما كان يذرع تلك الطرقات حاملا اوراقه واقلامه ، باحثاً عن وجوه للوحته « الانسانية » ، ولكن الحياة مالبثت ان دفعته في طريق آخر .

عندما عاد جريفز من الحرب ، قدم له والده عملا كمدير قسم في معمل المعلبات الذي يملكه ، هذا المعمل الذي ازدهر ازدهاراً باهراً اثناء الحرب . ولكن الذي آلم جريفز هو ان والده اغتنى في فترة انهارت فيها ثروات رجال آخرين ، فرفض العمل ، وقرر ان يغادر المنزل ليعيش مستقلا . وظل فترة طويلة قابعاً في غرفة داخلية في دار صحيفة

كبيرة ، حاولا ان يبيع اللوحات التي رسمها اثناء الحرب ، ولكن رؤساء التحرير كانوا يعرضون عنه قائلين . لقد انتهت الحرب الآن ، لماذا نذكر الناس بالآلام التي مضت ؟ يجب ان نقدم لهم الآن اشياء مليئة بالتفاؤل .

وفقد جريفز الأمل ، ووجد عملا في معمل للنسيج كمصمم للرسوم . وقد افرحه في بادىء الامر ان يسير في الطرقات ويشاهد الفساتين والقمصان محلاة بالرسوم التي صممها . ان الناس يريدون ان يعيشوا حياة سهلة وينسوا قدر الامكان الحروب وويلاتها : ولذا يجب ان تكون الاقمشة مزينة بنجوم صغيرة ، او بخطوط واضحة ذات ألوان متعددة ، او بمربعات متداخلة فيما بينها .

وبعد عدة سنوات تزوج جريفز ابنة صاحب المعمل واصبح مساعداً له ، وأتى برسام شاب يشغل مكانه ، شاب مليء بالحيوية ، ووجد جريفز لديه وقتاً فارغاً يشغله بالعودة الى الرسم ، ولكنه كان قد اضاع اناملة في رسم اشياء تافهة ، ولم يعد بامكانه ان ان يبدع شيئاً ، اما زوجته فكانت تسخر من هوسه الذي لاتراه مناسباً لرجل له مكانته في عالم رجال الاعمال . وبدأ جريفز يكره زوجته ، واعتبرها مسؤولة عن فشله فأغرق نفسه في الشراب .

في احد الايام ، دعا الرسام الجديد — ذلك الشاب الذي يشبه في حيويته الروسي الذي لقيه في الطائرة — جريفز الى منزله . وهناك عرض عليه لوحة كبيرة وضعها في منتصف الغرفة وسأله :

— أليست رائعة ؟

ووقف جريفز مدهوشاً ، فعلى اللوحة القماشية ، عدد من الوجوه المتشابهة ، تمتزج وتتداخل فيما بينها ، وتشكل في مجموعها وجهاً منسجماً ، وجه الانسانية .

وظل جريفز صامتاً ، كان لابد ان يقوم احد برسم هذه اللوحة ، وفي سبيل الفن لايهم من الذي قام برسمها . ولقد تأخر جريفز كثيراً في تنفيذها ، ومنذ ذلك اليوم هجر الألوان واللوحات واغرق نفسه في الشراب .

... وأغرقته أحلام صباه ، وفشله في انجاز العمل الذي كان يحلم به ، في ظلمة قاتمة وهو يسوق سيارته البلايموث الضخمة في شوارع هونولولو . وأحس فجأة بثقل في يديه ، وارتخاء في وجهه ، ودوار في رأسه ، وفكر للحظة ان ينهي بشجاعة هذه الحياة التي يخيل للناس انها ناجحة ، ولكن حتى محاولة الهرب هذه قد اتت متأخرة .

واستأجر جريفز غرفة في الهلتون ، وخلع ملابسه ، ثم ارتمى على السرير وأغفى على صوت آلة تكييف الهواء الرتيب .

كانت اول فكرة خطرت له عندما استيقظ : « لماذا بحق الشيطان اتيت الى هنا؟ لقد اتيت لأرى بيرل هاربر . فهبط الدرج واندفع بسرعة نحو بوابة الفندق .

كان اكثر الزبائن الذين يسيرون في صالة الفندق من العجائز : سيدات ثرثرات ، يضعن زهوراً صناعية على قبعاتهن ، وعقوداً ثمينة تخفي تجاعيد اعناقهن . ورجال موهنون يرتدون سراويل قصيرة تلوح من تحتها سيقانهم التي تحمل آثار الملح . الجميع يرسمون على وجوههم إبتسامة مصطنعة تشبه إبتسامة (الموديل) الذي يعلن عن معجون اسنان رديء الصنع .

كانوا جميعاً يقومون بجهود تفوق طاقاتهم ، ليظهروا للآخرين سرورهم ، وفرحهم بالاستجمام في جزر هاواي ، رغم انهم يتناولون وجبات طعام خفيفة ، ويستريحون لمدة نصف ساعة فقط على الشاطىء وفي ظل المظلات .

وخاطب جريفز نفسه .

« لاتسخر منهم ، بضعة سنوات أخرى وتصبح مثلهم » .

ودخل جريفز مخزنا في صالة الفندق ليشتري صابوناً للحلاقـة واشياء مختلفة وقميصاً . واختار نفس النوع الذي كان يرتديه اثناء اجازاته العسكرية : قميصاً مزيناً برسوم اشجار النخيل . ثم حلق ذقنه وغير ملابسه واتجه بسيارته البلايموث الى المكان الذي سيقلع منه القارب المخصص لنقلهم الى مكان ذكرى ضحايا بيرل هاربر . وهنا التقى بالياباني ،

وبدأ القارب يشق طريقه ، ويتأرجح فوق الامواج بهدوء .

ووقف بحار شاب ، يضع على رأسه قبعة ناصعة البياض ، كأنها كعكة غارقة بالكريمة ، ويرتدي بنطالا بكسرة صحيحة – كما لو انه وضعه تحت الفراش ، كما كان يفعل جريفز وهو في الخدمة العسكرية – وأعلن ان التصوير ممنوع .

وانزعج بعض السائحين : انهم يريدون بلا شك ان يلتقطوا الصور التذكارية لهذا الميناء المشهور ليعرضوها على اصدقائهم لدى عودتهم .

وسأل جريفز الياباني :

– هل عرفت قبل ذلك هذه الاماكن المحيطة بالخليج ؟

– كلا ، ان النظر من الطائرة مختلف تماماً . لم اتبين في ذلك اليوم الا الاهداف العسكرية . اما الآن فانني أرى وجوه الناس ، والامواج ، واشجار النخيل .

حتى جريفز لم يتعرف على الخليج ، ان الاريزونا ليست هنا ، وبدونها يبدو كل

شيء مختلفاً . واصطدم القارب بعجلات سيارات قديمة طافية على الماء . ونزل الركاب واجتازوا مباشرة الجدران المرمرية البيضاء للمتحف المقام فوق المياه .

ورفع دليل المتحف — وهو رجل عجوز قصير القامة ، احمر الوجه — قبعته وحيا المسافرين ، ثم شمخ برأسه الى الاعلى فظهرت آثار جروح آلة الحلاقة على ذقنه ، وأشار بيده طالباً الصمت من الجميع .

– أيها السيدات والسادة ، انكم تقفون الآن في هذا المكان التاريخي الذي ... وبدأ يتكلم بلهجة رتيبة

وابتعد جريفز عن المجموعة . واقترب من الصور المعلقة على الجدران ، وشاهد الاريزونا تحترق ، وقاذفات القنابل اليابانية تنقض على الاهداف ، ولكن هـذا لايمثل الا الخطوط العريضة من التاريخ .

لم يجد في هذه الصور ، كتب الانجيل وهي تتناثر من العلبة الكرتونية الممزقة ، ولا الذراع التي نقشت عليها عبارة « جيم يحب نانسي » وهي تمسك بالرقيب الذي برزت من جيب سترته مرآة صغيرة ، ولا الكاهن الذي لوث الهباب وجهه والذي كان يتمتم بشفتيه شيئاً لم يسمعه أحد . لقد ضاعت كل هـذه التفاصيل التي تصنع التاريخ ... وابتعد جريفز اكثر قليلاً ، وتوقف فوق السطح الرخامي ، وخيل اليه أنه يشاهد قطعاً من الاريزونا تطفو على السطح وقد غمرها زبد أخضر . لقد بني المتحف تقريباً في الموقع الذي غرقت فيه الاريزونا منذ خمسة وعشرين عاماً

وأعاده الى عالم الواقع صوت الدليل المتقطع الرتيب :

– ... أرجو ألا يعتصر الألم قلوبكم أيها السيدات والسادة ، وأنتم تسمعون ، أن تحت أقدامنا ، وفي داخل الاريزونا تقبع حتى الآن جثث أكثر من ألف بحار أميركي ؛ قضوا بشجاعة وهم يقاتلون في سبيل الانسانية ، وأصبحت بارجتهم المحبوبة قعر الأيدي.

وشعر جريفز بالخوف ، كما لو أنه مايزال شاباً مليئاً بالأمل ، ولكنه قابع هناك في أعماق الاريزونا ، أما الواقف الآن على السطح الرخامي فليس هو وانما كائن غريب آخر .

واقترب من الجدار الذي علقت عليه أكاليل بزهور صناعية ، كتلك التي شاهدها على قبعات العجائز المقيات في الهلتون ، وبدأ يقرأ الأسماء المنقوشة على الرخام . كان يعرف كثيراً من أصحابها معرفة شخصية حتى أنه رسم بعضهم فيما مضى .

هذا الاسم لرجل من شيكاغو ، بولوني الأصل ، كان يتسلى بعزف ألحان خفيفة على المشط بعد أن يحيطه بورقة سيجارة .

والآخر من آلباما ، زنجي ضخم الجثة ، طيب القلب ، يفتر ثغره دائماً عن أسنان ناصعة البياض ، وكانوا يضحكون منه .

وهذا اسم بيل لاورس لقد أعار جريفز في تلك الليلة المشؤومة عشرين دولاراً ، وبقي جريفز مديناً له بهذا المبلغ الى الأبد . وقد قال له وهو يتركه مع الفتاة « انتبه جيداً ، ولا تتأخر أيها العجوز » ثم غمز له بعينه « لن تكون لك مكانة عندي اذا عدت في الوقت المحدد » . ثم أطلق ضحكة واتجه الى الطريق معانقاً فتاته غير عالم أنه لن يرى جريفز بعد ذلك مطلقاً .

أمام الجدار الذي يحمل أسماء القتلى لمح جريفز الشاب الروسي . كان هـذا يقف صامتاً وقد بانت عليه ملامح الكبر ، ولكنه التفت الى جريفز قائلاً :

— أرجو ألا يكون هناك بيرل هاربر أخرى .

وأجاب جريفز :

— ان كل شيء يتكرر ، وأشار باصبعه في الهواء وكأنه يرسم خطاً تحت العبارة التي قالها .

عندما عاد الجميع الى القارب ، قال اليـاباني الذي سمع الحوار بين جريفز والشاب الروسي .

— ان نظرية التكرار نظرية خاطئة ، وكما يقول القدمـاء : لايمكن أن يغوص الانسان مرتين في نفس المياه .

— ان تكوين جوهر الماء H^2O يشبه جوهر علم النفس البشري . ان نظريات علم النفس تتبدل باستمرار ولكن الجوهر يبقى كما هو ، مثل جوهر الماء الذي يبقى محافظاً على رمزه H^2O مهما طرأ عليه من تبديل .

وأجاب الياباني :

— ان التفكير بهذه الطريقة خطأ بالغ . ان أساليب العنف مثلا ، والتي كانت في وقت ما طبيعية جداً ، تلوح لنا مخجلة جداً .

— المهم أن العنف قد بقي عنفاً ولكنه ارتدى ثوباً اكثر عصرية ، وحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة مشرقة مشجعة .

— إنني معك في هذا ، ولكن يد العنف أصبحت الآن شبه مقيدة وأقل حرية مما كانت في السابق . أما فيما يتعلق بنشوب حرب عالمية جديدة . . فأعتقد أن الحرب السابقة قد علمتنا أشياء كثيرة . ويلوح لي أن علينا الاهتمام بالانسانية جمعاء لابيلاد متفرقة . اننا ننادي بهذه

الفكرة ، بسبب تسابق الدول الى انتاج الأسلحة الفتاكة المرعبة لتتفوق على غيرها من الدول .

ونظر جريفز الى الياباني وقال :

— انني أفضل أن أكون متشائماً وعلى خطأ ، من أن أكون متفائلاً وأخدع .

واقتربت في تلك اللحظة من الشاب الروسي فتاة ترتدي ثوباً أزرق وتضع نظارات على عينيها ، وعلقت على صدره شارة كتب عليها « اعملوا من أجل الحب ، ولا تعملوا من أجل الحرب »

ورمق الروسي جريفز ونظراته تزداد حدة وقوة .

— أعتقد أنه لا اعتراض لك على هذا الشعار !

— كلا ، ولكن مهما فعل الحب فانه لن يستطيع أن يقف بوجه الحرب ، ان لي تجربة أخرى ...

ثم نظر إلى الياباني قائلاً

— يمكنك أن تذهب معي في السيارة التي استأجرتها .

ورفع الياباني يده اشارة للرفض وقال :

— شكراً ، لقد استأجرت سيارة مرسيدس !

— من أي وكالة ؟

— من وكالة هيرتز ، أعتقد أنها أحسن وكالة لتأجير السيارات

— أما أنا فقد استأجرت سيارتي من وكالة آفيس ، ان شعارها « اننا في الدرجة الثانية ، ولكننا نعمل للأفضل والأفضل دائماً ... » .

* * *

وانطلق جريفز والياباني لمشاهدة ألعاب بعض الدلافين

وقال جريفز للياباني :

— هل تعرف أن الدلافين المتمرنة يمكن أن تصبح سلاحاً حربياً رهيباً ؟ يكفي أن تربط على بطونها بعض الأسلحة ، ثم تطلقها لتغوص تحت أي باخرة وتدمرها . وبمعنى آخر : ان التقدم العلمي والفني يوضع الآن تحت تصرف آلة الحرب .

وأجاب الياباني :

— انك متشائم جداً ، ولا تعرف كيف تتلاءم مع الوجود . انك معقد حتماً من فكرة الحرب .

كن أكثر بساطة، انظر الى العالم كما ينظر اليه الأطفال السعداء، عش سعيداً أنت أيضاً ! .
« يجب أن أقدم هذه النصيحة لنفسي ، أنا أيضاً نسيت بهجة الحياة فكيف يعيش الانسان سعيداً ؟»
وتذكر الياباني شعراً قديماً فابتسم ابتسامة حزينة وبدأ يترجم الشعر الى الانجليزية

دائماً ، تحت ضوء القمر الفضي
ليتنا نستطيع أن نولد من جديد
والصنوبر فوق الجبل

والتفت الى جريفز قائلاً
– إنه باليابانية أجمل بكثير ، أرجو أن تعذرني على هذه الترجمة
– إنه شعر جميل حتى بالانجليزية ، أرجو أن تقوله مرة أخرى
وبدأ الياباني يكرر المقطع الذي قاله

دائماً ، تحت ضوء القمر الفضي
ليتنا نستطيع أن نولد من جديد
والصنوبر فوق الجبل

في الوقت الذي كانا يبحثان فيه عن مطعم مناسب قال جريفز للياباني :
– انظر الى يمينك ، ياله من دلفين جميل .
ونظر الياباني : في مركز الساحة ، ووسط قطعة ارض مليئة بالزهور ، استقر نصب يمثل صاروخاً يتجه رأسه الى السماء . فحك الياباني رأسه وقال :
– انك تضيع وقتك في التشاؤم ، يجب أن تناضل ، ولا تجعل الحياة مستحيلة هكذا.
– النضال لايعني مطلقاً الحرية ، بالاضافة الى أننا قد ننخرط في نضال من اجل الحرية يقودنا الى الحرب ، انتبه جيداً الى الصاروخ .
ونظر الياباني من جديد الى الصاروخ وشاهد على طرفه كتابة « اننا نناضل من أجل السلم » .
– نعم ، اننا نناضل من اجل السلم ، وسنظل نناضل حتى لايبقى في هـــذا العالم حجر قائم ، واحنى جريفز رأسه وتابع قائلاً :
– كلا ، انني افضل الحرية .
واستقرا اخيراً في مطعم صيفي ، وجلسا تحت أشجار النخيل بالقرب من شلال اصطناعي تخرخر مياهه برقة .

وقال الياباني للنادل :

— أي شيء ساخن ، ثم انني لا أشرب الا المياه المعدنية .

وقال جريفز .

— أريد طبقاً من الأصداف ، وزجاجة كليكوت

* * *

قال الياباني :

— اننا لانستطيع الهرب من الحياة مطلقاً ، واذا اختبأنا منها ، فانها ستقبض علينا في مخبئنا ثم تخرجنا منـــه بضربة صغيرة ، كما تخرج انت القواقع من اصدافها بضربة شوكة خفيفة .

ولم يجد جريفز جواباً لهذا الكلام ، كما أنه لم يكن على استعداد للانتساب الى اية منظمة تناضل من اجل السلم .

وانتهى الغداء ، وخرج الياباني وحيداً ؛ كان عليـــه أن يذهب لالقاء محاضرته ، وانطلق جريفز يتريض على قدميه في شوارع هونولولو .

وفكر أنه في حالة الهرب من الوجود ، حتى لو كان هذا الهرب مؤقتاً — يمكن للانسان ان يحصل على السعادة ولو مرة واحدة . لابد أن الصحو من السكر سيأتي يوماً . ولكن اللحظات السعيدة لايجب أن يفوتها اي انسان . وتذكر فتاة هاواي ، التي خدعته يوماً ، لأنها لم تصدقه دون شك . لايهمه انها خدعته ، بقدر مايهمه أن أي انسان لايستطيع ان يمحو من ذاكرته تلك الليلة ؛ عندما ظل مستلقياً الى جانب الفتاة ، يتأرجحان فوق المياه الساكنة تظللها سماء مزينة بالنجوم ، ومن بعيد يلوح قارب صغير وحيد يلمع في الظلمة الداكنة وكأنه حذاء من الكريستال ؛ وهو يقبل صدر الفتاة الناهد ... وللمرة الاولى احس أنه أحسن صنعاً بالمجيء الى هونولولو .

وظل يسير ويسير مخترقاً شوارع هونولولو ، يـدخل باراً ويخرج منه الى آخر . وشرب كثيراً من الفودكا ، بعد أن يئس من الحصول على شمبانيا جيدة في امريكا .

ولم يعد جريفز يذكر ماذا شرب ، واختلط لديه الحاضر والماضي ، وعنـــدما سقطت أنظاره على قميصه المزخرف برسوم اشجار النخيل ، خيل اليه انه مايزال ذلك الجندي الصغير في البارجة اريزونا ، وأنه الآن في اجازة قصيرة الامد . « أليس من الحماقة أن يخفي جنود الاريزونا اوراقي واقلامي ؟ » خطرت هذه الفكرة لجريفز وهو يشاهد رجلاً وجهه ملوث بالزفت الأسود ويسند ذقنه الى فرشاة كبيرة ، وفي وضع

يذكر بتمثال المفكر لرودان . أو بوجوه الأطفال العراة ، الذين يمتصون بالتناوب قطعة كبيرة من السكر .

وفجأة ، لاحظ جريفز أن صديقه و . كيللي قد جلس على الأرض ، الى جانب اقدام الأطفال العارية ، كان يصنع لهم اقفص من الورق ، بواسطة صحيفة نشرت عليها المقالة التي ألقاها الياباني بمناسبة ذكرى بيرل هاربر .

وحاول الساقي الأصم أن يفك سلك سماعته العتيقة ، الذي التف حول نصب الصاروخ الذي إقيم في قطعة ارض مليئة بالزهور الإستوائية ، وعلى طرف الصاروخ نقشت العبارة التالية « إعملوا من إجل الحروب ، ولا تعملوا من اجل الحب » . وهدر الصاروخ كما تهدر الدلافين ، واقتربت ممثلة وكالة أفيس ذات الأقراط الذهبية وتناولت زجاجة شمبانيا فرنسية مبردة القتها على الصاروخ . وانطلق الصاروخ في السماء ، وقد جلس على حافته رجل نصف عار ، يضع على رأسه قبعة عسكرية ، وعلى وجهه تظهر آثار معجون الحلاقة .

وصاح بيرت من وكالة هيرتز ، وقد أتى بسيارة دودج كبيرة ، ووضع في اصبعه خاتماً من الأبنوس ، هو نسخة مصغرة من التماثيل الخشبية :

– ماذا يجري هنا ؟

وأجاب الساقي :

– اكتب ما تريد على ورقة ، انني لا اسمع شيئاً !

وأمام الجدار الذي نقشت عليه اسماء ضحايا بيرل هاربر ، انحنى الشاب الروسي متفحصاً الأسماء ، ولكنه لم يكن ينتعل حذاء من جلد الايل ، بل حذاء اهترأ نعله ، ويحيط به سلك من النحاس . وتقدم والد جريفز ، ووضع في فم ابنه علبتين من الكونسروة ، وتقدم رجل يضع على رأسه قبعة تيرولية ويرتدي بذلة رقيب تظهر من جيب سترتها مرآة صغيرة ، وساعد والد جريفز بأن وضع علبتين من الكونسروة في فم الروسي ، ووقف الرسام الشاب يضع اللمسات الأخيرة للوحته « الانسانية » ، كان يرسم وجه صف الضابط وكأنه وجه صاحب مزرعه في تكساس ، ان الشبه قد اصبح اكثر وضوحاً الآن بفضل القبعة المكسيكية . وخيل لجريفز أن صف الضابط يحاول الخروج من اللوحة ويقول له :

– هل رأيت هذا ! انه اميركي ومع ذلك فانه رسام بارع !

وتقدم طيارون اميركيون نصف سكارى ، وتراكضوا نحو اللوحة ، وقد تسلحوا بدلاء وفراشي وبدأوا يغطون اللوحة بطلاء الكلس .

وتقدمت فتاة ، تحمل أحمر شفاه كبير الحجم ، اكبر من مطرقة ، وكتبت على اللوحة رقم هاتفها ، والى جانب الطيار الياباني ، وقف كاهن لوث الدخان وجهه يرمق الاريزونا ، وخرج المسافر الياباني من الماء يحمل حقيبة سفره ،وعوضاً عن شراب الساكي، اخرج انجيلاً وبدأ يتمتم دون أن يسمع له صوت . وانحنى جريفز فوق كتف الياباني وقرأ على صفحات الانجيل كلمات كتبت بحروف كبيرة « الأفضل والأفضل دائماً .. الأفضل والأفضل دائماً ... » ولا شيء غير ذلك .

وبالقرب من جريفز ، ارتمت جثة ، على ذراعها وشم « جليم يحب نانسي » .أما والدته فقد لفت خصلات شعرها الرمادية بدبابيس شعر مختلفة ، ووقفت تؤدي حركات منتظمة بيديها .

وغرق جريفز في بحر من الخوف .

وأدار وجهه بعنف ، ليتخلص من هذه الاشباح الشيطانية التي تلاحقه وتسرع اليه، وتبين انه يقف أمام بار يملكه رجل بولينيزي .

وخرج من البار بحار عملاق يضع ذراعه حول فتاة ، واطراف بنطاله الواسع تنسحب على الارض . وصاح جريفز وهو يلقي بنفسه عليه :

— بيل !

— يبدو لي أنك إكثرت من الشراب ، يا سيدي !

ودخل جريفز البار ، وقد انتابته مشاعر غريبة .

كانت التماثيل الخشبية التي عقدت أذرعها على صدورها ، تنظر اليه دون اهتمام ؛ وكأنها لم تعرفه . وشاهد جريفز ساقاً صغيرة تلتف على حلقة كرسي البار ، وعند الكاحل تماماً سلسلة من الفضة ، ولكن الشامة لم تكن في مكانها . وعلى الوجه الحائر للفتاة ارتسمت نفس العينين السوداوين ، وبين خصلات الشعر السوداء انغرست نفس الزهرة الاستوائية .

وقال جريفز وهو يقترب من الفتاة :

— صباح الخير ! هل كنت بانتظاري ؟

— نعم ، ياسيدي !

— إنك لم تتغيري مطلقاً ، وكأن هذه السنين الخمس والعشرين لم تنقض ؛ ولكن أين أخفيت الشامة التي على ساقك ؟

ولم تبد الفتاة اي انزعاج ، إذ يبدو انها اعتادت سماع كثير من هـذه الاسئلة.
وتابع جريفز مبتسما :
- هل أخفيتها لحين عودتي ؟ يجب ان تبحثي عنها وتعيديها الى مكانها الأصلي ، أليس كذلك ؟
- نعم ياسيدي !
وأمسك بيدها وتابع :
- لنخرج من هنا ، إن قاربنا ينتظرنا دائماً . أليس كذلك ؟
- نعم ، يا سيدي !
ووصلا إلى الشاطىء المظلم المقفر ، والتفت اليها جريفز :
- اخلعي حذاءك ارجوك ، أريد ان يكون كل شيء كما كان في تلك الليلة .
- أليس من الأفضل ان نذهب الى الفندق ياسيدي؟ إن البوليس يأتي الى هنا احيانا.
- كلا ، كلا ، هنا أفضل ، ألا تذكرين ؟ لماذا لاتخلعين حذاءك ؟

وخلعت الفتاة حذاءها ، وبدأت السلسلة الفضية تغرق وتطفو في الرمال متوهجة تحت أشعة القمر . وبالقرب منها ، كان البحر الكبير ، مزروعاً بآلاف النجوم ، وبعيداً في الأفق ، كان قارب صغير وحيد يتأرجح برفق فوق سطح الماء ويلمع كأنه حذاء من الكريستال .
واستلقيا على الرمال بالقرب من لوح خشبي (يستعمل للعوم فوقه في المياه)
- عندما كنا هنا في المرة السابقة ، لم ألاحظ وجود هذا اللوح .
وقالت الفتاة لنفسها :
« ان الشيطان وحده يمكن ان يعرف ... ربما أتيت الى هنا مع هذا الرجـل ، ولكن يخيل الي ان هذه الألواح الخشبية موجودة هنا منذ زمن » .
ومع ذلك أجابته :
- نعم ياسيدي ، لم تكن هذه الالواح موجودة في المرة الماضية .
كانت بفطرتها تعرف ان من الأحسن عدم معارضة اقوال الرجال ، وخاصة اذا كانوا ثملين .
وسألها :
- أتحبينني ؟
- نعم .

وبان بياض اسنانها الناصع ، عندما اقترب جريفز منها وفتحت شفتيها ببطء...
وامحى كل شيء امام جريفز ، ولم يعد امامه الا ذلك الفم الحار ، والعينان الواسعتان المظلتان من الوجه .

وأمسك جريفز بيد الفتاة :

ـ لقد احببتك كل حياتي ، هل تفهمين ؟ إنني أسامحك لأنك خدعتني ! اعرف ان لك أماً واخوة بحاجة الى الطعام . ولكنك ستأخذين المال الذي سأدفعه لك وتعطيه لهم ، لئلا تكوني مضطرة الى خيانتي من جديد .

وأخرج من جيبه رزمة من الدولارات ودسها في حقيبة الفتاة بيد مرتعشة . وخافت الفتاة ، لم تشاهد في حياتها مبلغاً مثل هذا من المال .

« ان الشيطان وحده يعرف ماذا يدور بخلد هذا الرجل . لقد سقطت ماري ضحية رجل يزيف النقود . من يدري ، ربما كان هذا الرجل من الشرطة ! »

ووقفت بسرعة وقالت :

ـ كلا ، كلا ياسيدي ... لست بحاجة الى هذه النقود .

وتوسل اليها جريفز :

ـ خذيها ، خذيها ، أرجوك !

وهزت رأسها بعنف :

ـ كلا ، كلا . وابتعدت عنه تحاول الافلات .

ـ أرجوك ، لاتذهبي !

ـ يجب ان اذهب ياسيدي !

ـ سأرافقك اذن

ـ ليس الوقت ملائماً ياسيدي

وحاولت ان تبتعد من جديد

ـ حسناً ، سأراك غداً ، الساعة الثامنة هنا ، على الشاطىء ، وستحضرين معك الشامة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ياسيدي .

وحاولت ان تتخلص منه بأي شكل ولكنه تابع يقول :

ـ ثم نذهب معاً ، يجب ان نذهب معاً . سأطلق زوجتي ونتزوج ، اريد ان ارسم

لك لوحة، ولن نفترق ابداً . صحيح اني قد اصبحت عجوزاً خلال السنوات الماضية وانك احتفظت بشبابك وستصادفك بعض المتاعب، ولكن بامكانك ان تمنحيني حبك فقط وسأعود شاباً من جديد .

وتخلصت الفتاة منه واسرعت الى الدرج الحجري الموصل الى المدينة . وظل جريفز وحيداً . وفجأة خرج جيم من خلف اللوح الخشبي يحمل زجاجة شراب ينقر عليها بظفره الأصفر المكسور وقال بحزن :

— لاتصدق اي انسان ! ضع ثقتك بالزجاجة فقط !

وسأله جريفز وهو يشد على أحرف الكلمات :

— اي انسان ؟

على ضوء اشعة القمر ، كان لوح خشبي يقفز فوق الامواج ، وفوقه استقر الخادم الصيني ذو الوجه المجعد كتفاحة مشوية ، حاملاً باحدى يديه صحناً وبالأخرى صاروخاً صغيراً يتجه رأسه نحو السماء المزينة بالنجوم .

وعلى كرسي طويل جلست عجوز هاواي ، وقد وضعت في طرف فمها غليوناً، وترشف بين حين وآخر جرعات صغيرة من الشمبانيا الفرنسية ، وقالت من خلال فمها المفتوح كمغارة سوداء :

— هل تصدق احداً ؟ هل تصدق احداً ؟

أما عنقها فقد زينته بعقد نفيس — مثل العقود التي تتحلى بها عجائز الهلتون — يخفي تجاعيد عنقها وتلمع حباته فوق اسمالها البالية .

وأسرع جريفز ليلحق الفتاة ، ولكنه اضاع آثارها .

وسار في الشارع لايرى المارة ولا السيارات، كأنه سائر في نومه ، ولكنه يعرف الى اين يذهب . واقترب من البار كاللص ، ولكنه لم يدخل من الباب الرئيسي ، بل اجتاز السور الحديدي بقفزة واحدة واصبح داخل الحديقة . كانت اوراق الاشجار تلمع تحت الاضواء المنبعثة من البار واقترب جريفز من النافذة المفتوحة شيئاً فشيئاً ، واطل برأسه من خلال اغصان شجرة المانوليا ، ونظر في المكان المقابل له ، وحيث تقبع التماثيل الخشبية الصامتة شاهد سلسلة فضية تحيط بساق صغيرة . كانت الفتاة جالسة امام منضدة ، ويد مزينة بخاتم تداعب ظهرها .

وأطلق جريفز ضحكة .

وعاد يهيم في الشوارع مرة أخرى ، والمارة يوسعون الطريق أمامه ...

« الأفضل والافضل دائماً » شعار أنيق مكتوب على لوحة معدنية ، ويزين الجدار خلف ممثلة وكالة أفيس في مطار هونولولو . وتقدم جريفز ليعيد الفتاة مفاتيح السيارة ، كانت في زيها الأحمر الأنيق تشبه شبكة رقيقة من عصير البندورة ، وقد زينت شحمتي اذنيها البرتقاليتي اللون بكرات من الكريستال معلقة بسلك رفيع .

وقالت الفتاة بلطف

— لم تبق هنا إلا يومين ؟ انها جريمة يا سيدي !

واجاب جريفز مبتسماً وهو يهز كتفيه

— العمل ... انها الأعمال الكثيرة !

كان جريفز يشعر بألم شديد في رأسه ، فألقى نظرة فاحصة في البهو ، باحثاً عن البار . وفي المكتب المقابل شاهد الياباني يعيد مفاتيح سيارة المرسيدس الى ممثل وكالة هيرتز .

« إن الياباني على خطأ ... إن النفس البشرية تبقى دائماً كما هي . وكل شيء يمكن أن يعاد ما دامت النفس البشرية لم تتغير . حتى بيرل هاربر يمكن أن تتجدد أيضاً » ..

واقترب جريفز من الياباني وسأله

— هل القيت محاضرتك ؟

— لقد القيتها ! لقد أتت النساء ليعرضن أزياءهن ، والرجال أتوا لينفذوا بعض مشاريعهم المالية . يخيل الي أن الجميع قد نسوا ماذا تعني في الحقيقة بيرل هاربر . هل تصدق ؟ يخيل الي أحياناً أن جميع هذه المحاضرات تذهب سدى . ولكن يجب ان نفعل دائماً شيئاً ما !

نعم . يجب ان نفعل شيئاً ، ولكن ماهو هذا الشيء وكيف يكون ؟ هذا مـــا لا يعرفه جريفز .

وسأل الياباني :

— هل لديك شيء من الساكي ؟

— لا بد ان يكون قد بقي منه شيء .

ان جريفز لا يستطيع مطلقاً ان يثرثر مع اي ياباني آخر . لم يبق أمامه الا هذا الرجل الذي يستطيع ان يبسم بحرارة .

«على كل حال ، لقد كان من السخف ان نلقي قنابلنا عليهم في هيروشيا» وتذكر الشعر الذي قاله الياباني :

« دائماً ، تحت ضوء القمر الفضي
ليتنا نستطيع ان نولد من جديد
والصنوبر فوق الجبل »

وأشعل جريفز قداحته التي اشتراها من الهيلتون وسأل الياباني :

— هل تريد ناراً ؟

وقرب جريفز الغاز من لفافة الياباني وانتبه فقط في تلك اللحظة الى الكتابة المنقوشة عليها .

« تذكروا بيرل هاربر ! »

وقال الياباني :

« أنا ايضاً لدي قداحة من نفس النوع » .

كتاب المعرفة

بيير جاله

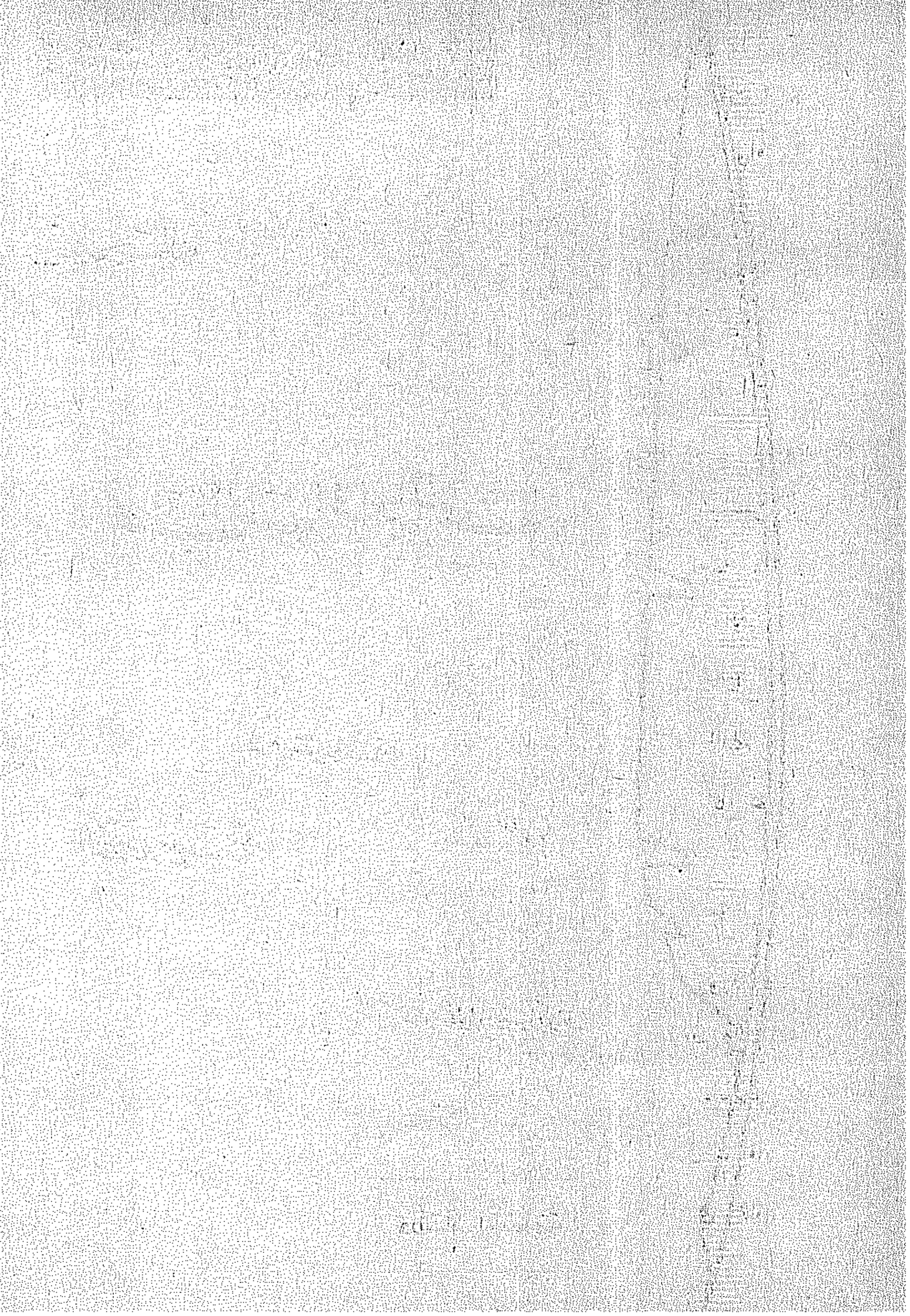
نهب العالم الثالث

ترجمة ومراجعة

الدكتور يوسف شقرا   أديب اللجمي

عرض وتحليل : ميشيل كيلو

دراسات اجتماعية



ليس هناك عالم أول وثان وثالث ، بل هناك فقط نظامان اجتماعيان يبسط كل منهما نفوذه على قسم من الكرة الأرضية : النظام الاشتراكي في البلدان الاشتراكية ، والنظام الرأسمالي في البلدان الأمبريالية وماذا بشأن بلدان « العالم الثالث » ؟ حقاً أن بعض بلدان العالم الثالث تمر بمرحلة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وأن هذا « العالم » بكامله يجد نفسه في مرحلة مخاض عظيمة ، الا أن هذه الحقائق لاتسوّغ إيجاد وصف محايد « العالم الثالث » لجزء من الكرة الأرضية ، وصف يوهم بأن ثمة عالماً محايداً اجتماعياً ، لاهو رأسمالي ولا اشتراكي ، عالم قائم بذاته لاتربطه بغيره من الأنظمة سوى رابطة التلازم المكاني والزماني . مثل هذا التفسير الشائع ، والذي تروج له الدعايات الرأسمالية ، خاطىء كلياً ، اذ ليس « العالم الثالث » سوى مفهوم سياسي كثير الاستعمال يقصد منه وصف البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة ، وعموماً ذات النمو الاقتصادي الضعيف ، في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، هذه البلدان التي تسببت السيطرة الأجنبية في إبقائها على قدر مشين من الفقر والتخلف ، والتي لازالت البلدان الإمبريالية المتقدمة صناعياً ، وفي بعض الحالات المتخلفة كالبرتغال ، تنهب ثرواتها وتسيطر على مقدراتها الاقتصادية والسياسية . هذا الترابط القائم بين المجموعة الأولى ، بلدان امبريالية ، والمجموعة الثانية ، بلدان مستغلة منهوبة ، هو الذي يفقد كلمة « العالم الثالث » من كل محتوى اجتماعي ويؤدي الى ضم هذا « العالم » الى البلدان الامبريالية ، مع كل ماينتج عن ذلك من بؤس وتخلف . وإذا كانت البلدان الامبريالية تظهر بعض التفاوت في مستواها الصناعي والاجتماعي ، كالولايات المتحدة والبرتغال ، فإن بلدان العالم الثالث تشترك في جملة من

الصفات الهامة التي يمكن ردّها الى مفهومين أساسيين :

آ — التخلف

ب — الاستغلال والنهب الامبريالي

وعلى الرغم من أن كلا المفهومين مرتبط بالآخر وبأن لهما طبيعة نسبية ، تختلف من بلد لآخر ، فإنها بقياسها مع الوضعية السائدة في البلدان الامبريالية يعكسان جيداً الوضع الذي تحياه شعوب بلدان العالم الثالث ، هذه الشعوب التي تسيطر الامبريالية على اقتصادها وسلطاتها السياسية ، والتي يتعرض فيها نظام الاستغلال الرأسمالي لأشد أنواع التساؤل .

التخلف

تحتل بلدان العالم الثالث أهمية كبيرة ، فهي تضم حوالي نصف سكان العالم وتشمل فوق ٤٧٪ من مساحة اليابسة ، أما مظاهر تخلفها بالقياس الى البلدان الرأسمالية الصناعية فهي :

آ — **حجم الانتاج الصناعي** : يعادل حجم الانتاج الصناعي في البلدان المتخلفة (بلدان العالم الثالث) $\frac{١}{١٠}$ من مجمل الانتاج الذي يحققه سكان البلدان الرأسمالية المتطورة ، وهم يشكلون خمس سكان العالم ، أما بالنسبة للقطاع الأساسي للصناعة الثقيلة فيعادل إنتاج بلدان العالم الثالث $\frac{١}{١٩}$ من إنتاج البلدان الرأسمالية .

ب — **الدخل والخدمات الصحية** : بينما يوجد في البلدان الرأسمالية المتقدمة وسطياً ١٢٢٠ طبيب لكل مليون نسمة يوجد في البلدان المتخلفة وسطياً ١٢٠ طبيب لكل مليون نسمة . ويبلغ الدخل الوسطي لكل نسمة في البلدان الرأسمالية المتقدمة ١٤٠٦ دولار ، بينما هو بالنسبة للفرد في البلدان المتخلفة ١٢٠ دولار . وهو أقل في آسيا وافريقيا من الدخل الوسطي للفرد في البلدان الرأسمالية المتقدمة بـ١٢ الى ١٢٫٥ مرة .

ح — استهلاك الفولاذ والطاقة :

إن استهلاك الفولاذ والطاقة هو في آسيا أقل منه في البلدان الرأسمالية بـ ١٧ الى الى ١٨ مرة ، وفي افريقيا ٣٠ الى ٤٠ مرة ، أما في أميركا اللاتينية فان الفرد يستهلك وسطياً أقل بـ ٧ الى ٨ مرات من الفولاذ والطاقة من الفرد في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة . ويبلغ استهلاك الفرد من الفولاذ في البلدان الرأسمالية المتقدمة ٤٠٠ كغ في السنة ، ومن الطاقة (مقدرة بالفحم الحجري) ٤١٤٢ كغ ، أما في العالم الثالث فيبلغ الاستهلاك الوسطي للفولاذ بالنسبة للفرد ٩ كغ سنوياً ، وللطاقة (مقدرة بالفحم الحجري) ١٢٧ كغ في السنة .

من هذه الأرقام يتضح أن ثمة درجات مختلفة من التفاوت ، فهناك :

آ — التفاوت بين البلدان المتخلفة والمتقدمة .

ب — التفاوت بين البلدان المتخلفة نفسها .

ح — التفاوت ضمن البلدان المتخلفة نفسها .

واذا كنا فيما سبق قد استشهدنا بأرقام توضح التفاوت القائم بين البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة والبلدان المتخلفة في العالم الثالث ، فان أرقاماً أخرى توضح التفاوت بين البلدان المتخلفة نفسها ، إذ يبلغ مثلاً دخل الفرد الوسطي في أميركا اللاتينية ضعفي ونصف دخل الفرد في أفريقيا وآسيا ، كما يعبر استهلاك الفولاذ والطاقة في أميركا اللاتينية عن بداية تصنيع حقيقية ، إذ أنه يبلغ ثلاثة أضعافه في آسيا وافريقيا .

أما التفاوت ضمن البلدان المتخلفة نفسها ، فقد وضعه كارلوس فوانيتز بالكلمات التالية : « لقد فرضت الرأسمالية نفسها فوق البنى الاقطاعية دون أن تدمرها ، مما أدى الى أن يتبلور في أميركا اللاتينية مجتمع ذو وجهين مجتمع المدن العصري الرأسمالي ، ومجتمع الريف الاقطاعي . وأصبح مجتمع الأقلية يزداد غنى ، بينما أصبح مجتمع

الأكثرية يزداد بؤساً ، وفي الوقت الحاضر يحظى ٤٪ من سكان أمريكا اللاتينية بـ ٥٠٪ من الدخل القومي »[1].

ان التناقض القائم بين الريف والمدينة هو إذن من أهم مظاهر التخلف التي تميز العالم الثالث ، واذا كان المؤلف قد استشهد بمثال من أميركا اللاتينية ، وهي كما رأينا اكثر البلدان المتخلفة تقدماً ، فان هذا يوضح مدى سيطرة الطابع الزراعي للاقتصاد على مجمل الحياة الاقتصادية سواء في هذه القارة ، أم في افريقيا وآسيا .

د ــ وتيرة النمو المتوسط للاقتصاد:

بينما يفوق النمو المتوسط للبلدان الاشتراكية نمو البلدان الرأسمالية المتطورة بحوالي ٦٥ ٪ ، نرى أن نمو هذه البلدان المتوسط أعلى منه في بلدان العالم الثالث بمرتين ونصف . وفضلا عن ذلك فان فرق متوسط النمو بين مجموعتي البلدان الرأسمالية المتقدمة وبلدان العالم الثالث لاينزع الى الامحاء ، بل هو يزداد ويكبر، اذ بينما كان الانتاج عام ١٩٥٠ بالنسبة للفرد الواحد « يزيد عشرة أضعاف في المناطق المتقدمة عنه في المناطق السائرة في طريق التقدم ، أصبح في عام ١٩٦٠ يزيد أحد عشر ضعفاً »[2]

فهل كان ذلك نتيجة لتطور طبيعي شهده العالم ، أم أن هناك أسباباً فرضها العالم الرأسمالي الأمبريالي على العالم الثالث أدت الى مثل هذا التدهور المستمر لمستوى معيشته ونمو صناعته الوسطي وتخلفه المتزايد في كل المجالات ؟ للاجابة على ذلك لابد من إلقاء نظرة على العلاقات التي تحكم الاقتصاد العالمي بكل فروعه ، مع العلم بأن هناك علاقة تبادلية يؤدى ارتفاع أحد حديها الى انخفاض الحد الآخر ، والعكس صحيح ، ونعني أن مستوى العالم الثالث الاقتصادي ونموه

---

(١) نهب العالم الثالث : ص ١٦ .

(٢) نهب العالم الثالث : ص ٢٠

مرتبطان بتخلصه من السيطرة الاقتصادية والسياسية للامبريالية ، كما يرتبط الوضع الاقتصادي الامبريالي بدرجة الاستغلال الذي تفرضه البلدان الرأسمالية المتقدمة صناعياً على بلدان العالم الثالث .

اننا ستفحص الآن طبيعة العلاقات القائمة بين طرفي العلاقة ، البلدان الرأسمالية الصناعية وبلدان العالم الثالث ، في كل المجالات الاقتصادية والمالية محاولين استخلاص الدروس السياسية من ذلك .

آ – الصناعات الاستخراجية :

لم تتطور الصناعات الاستخراجية للبلدان الامبريالية إلا بنسبة ١٠ ٪ من عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ ، وهذه الزيادة هي أقل بكثير من الزيادة في القطاعات الصناعية الأخرى لاقتصاديات هذه البلاد . ويعود ذلك الى أن مناجم هذه البلدان أخذت تنضب أو أن مردودها أصبح ضعيفاً ، أو أنها لم تعد تكفي حاجة التوسع . في نفس الوقت توسعت مناجم العالم الثالث وتضاعفت + ٦١ من ١٩٥٨ الى ١٩٦٢) ويعود هذا التوسع الى حاجة الصناعات والأسواق الامبريالية الملحة الى هذه الصناعات وخاصة في ميادين البترول والغاز والفلزات المعدنية . واذا كانت بلدان العالم الثالث قد تفوقت عام ١٩٥٨ بمعدل الثلث على البلدان الامبريالية في ميدان الصناعات الاستخراجية ، فان هذا التفوق لابد وأن يكون الآن أكبر من ذلك ، لأن نهب البترول والغاز والفلزات المعدنية قد شهد طفرة كبيرة في الستينات ولا زال مستمراً . خاصة وأن الصناعات في البلدان الامبريالية لا تستطيع أن تستغني عن مجموعة من المواد الأولية الهامة التي ينتج العالم الثالث معظمها كالبترول (٥٠ ٪ عام ١٩٦٢) وفلزات النحاس (٥٠ ٪ عام ١٩٦٢)[١] وفلزات المانغنيز (٥٠ ٪ عام ١٩٦٠)

(١) الدول الاشتراكية تنتج قدراً كبيراً من الـ ٥٠ ٪ المتبقية ، وهذا يظهر أهمية العالم الثالث الكبيرة بالنسبة للدول الأمبريالية التي لا تحتوي الا على قدر ضئيل من الفلزات المعدنية المذكورة أعلاه .

والكوبالت (۷۰٪ عام ١٩٦٢) والكروم (٧٥٪ عام ١٩٦٢) .. الخ .

« ان هذا التعداد يبين أن « الأمم البروليتارية ليست كذلك بسبب لعنة أساسية حلت بها ، وأنها لاتفتقر الى الثروات وبخاصة المواد الأولية اللازمة للصناعات الأساسية . وهي ليست بروليتارية إلا لأن ثرواتها كانت وما تزال نهباً للامبريالية ، لتلبي حاجات تصنيعها الخاص بها على حساب تصنيع بلاد تذهب هذه الثروات بعيداً عنها وهي في حالتها الخام »(١)

ب ـ **الصناعات التحويلية** : يبدو العالم الثالث متأخراً جداً بالنسبة للبلدان الامبريالية في ميدان الصناعات التحويلية عنه في الصناعات الاستخراجية ، وقد ذكرنا أن نصف سكان الكرة الأرضية تقريباً (سكان العالم الثالث) يحقق انتاجاً صناعياً يعادل واحداً من ثلاثة عشر مما يحققه خمس سكان العالم (البلدان الرأسمالية المتقدمة) . وفي القطاع الأساسي للصناعة الثقيلة يبدو الفرق أكبر أيضاً (تسع عشرة مرة بدلا من ثلاث عشرة مرة)(٢) . فهل ثمة ميل يبين أن هناك اتجاهاً الى التقارب ؟

لقد انتقل مؤشر الصناعات التحويلية بالنسبة للبلدان الصناعية (باعتبار عام ١٩٥٨ = ١٠٠) من ٦٢ عام ١٩٤٨ الى ١٣٠ عام ١٩٦٢ (+ ٦٨) ، بينما انتقل في الزمن ذاته بالنسبة للبلدان المتخلفة من ٥٤ الى ١٣٠ (+ ٧٦) . ان فرق النمو زهيد كما نرى . واذا راعينا أن سكان العالم الثالث يزدادون بسرعة أكبر من ازدياد سكان البلدان الامبريالية أمكننا القول أن هنالك ركود في الفرق النسبي الاجمالي بين الزمرتين ، « لا بل هناك تراجع من قبل الزمرة الثانية بالنسبة للزمرة الأولى فيما يخص النمو الصناعي

(١) نهب العالم الثالث : ص ٣٠ .
(٢) نهب العالم الثالث : ص ٣١

لكل فرد »[1] . ولا يتجلى هذا التراجع أو الركود إلا إذا تذكرنا أن العالم الثالث لا يشكو من البطالة بالمعنى الأوروبي المصطلح عليه ، وإنما من « فقدان العمل » وأن الخبراء يعتمدون بشكل عام على التنمية الصناعية من أجل خلق وظائف جديدة على نطاق واسع .

إن تأخر العالم الثالث في ميدان الصناعات التحويلية قد اتسع اتساعاً مخيفاً في الخمس عشرة سنة الأخيرة ، الأمر الذي يجعله مستعصياً على كل علاج اذا ما استمرت الظروف على شكلها الراهن . هذه الظروف التي تمتاز بأن قسماً هاماً من صناعات البلدان المتخلفة هي مشروعات أجنبية أو تحت رقابة أجنبية ، أي أنها « لا تدخل إلا استثناء في خطة التنمية للبلد الذي تقام فيه . فهي ليست سوى « كوى » أجنبية توضعت كي تستخلص فائض القيمة »[2] ويبدو ذلك على خير ما يكون في صناعة القصدير المكثف الذي أنتج العالم الثالث ١٣٣٠٠٠ طن (عام ١٩٦١) من أصل ١٦٥٠٠٠ طن (عدا الاتحاد السوفياتي) ، ولم يستخدم صناعياً سوى ١٣٣٥٠ طن في العام نفسه أي عشر انتاجه .

ج ـ **الانتاج الزراعي** : يجب في هذا المضمار التمييز بين نوعين من المحاصيل :

آ ـ المحاصيل الكبرى ذات الاساس الغذائي او المواد الأولية التي تكاد تصدر بكاملها الى البلدان الرأسمالية المتطورة .

ب ـ المنتجات الغذائية .

أما المحاصيل المخصصة لاستهلاك العالم الامبريالي كالفستق ، والقهوة والكاوتشوك والكاكاو والشاي فقد ارتفعت بنسب كبيرة تتراوح في الاثني عشرة سنة الماضية بين ٤٤٪ للفستق الى ٨٨٪ للقهوة . هذا التقدم « يدل في حدوده الدنيا على نسق من الزيادة تفوق بما لا مجال للمقارنة فيه

---

(١) نهب العالم الثالث : ص ٣٣

(٢) نهب العالم الثالث : ص ٣٤

الزيادة التي سجلها مجموع الانتاج الزراعي في العالم الثالث : ٢٠٪ خلال سبع الى ثماني سنوات» [١] . اما المنتجات الغذائية المخصصة لاستهلاك الجماهير في العالم الثالث نفسه فقد نمت بنسق بطيء جداً ، او انها لا تنمو مطلقاً . هذه المعطيات تسمح لنا بالاستنتاج ان الانتاج الزراعي للعالم الثالث ينمو بنسق نشيط فيما يتعلق بالمحاصيل المعدة للاستهلاك او للتحويل الصناعي في البلدان الامبريالية عندما يكون العالم الثالث هو المصدر الوحيد او شبه الوحيد لها ، ولكن هذا النسق اقل نشاطاً عندما يصطدم المحصول بمنافسة محصول صناعي بديل عنه (الكاوتشوك مثلا) ، « فالمحرك الرئيسي للانتاج انما هو في النهاية نداء السوق الامبريالية » [٢] . ويزيد من بشاعة هذه الصورة التي يستدل منهـا ان العالم الثالث ، ذي الطبيعة الزراعية البحتة ، لا يستطيع رفع انتاجه الزراعي المخصص للاستهلاك المحلي بسبب زيادة النمو السكاني والوسائل الزراعية المستخدمة فيه وانخفاض مردود الأرض الزراعية انخفاضاً مستمراً ، نقول إن هذه الصورة تصبح أشد بشاعة اذا ما راعينا ان معظم بلدان العالم الثالث لا تنتج سوى محصول واحد هو على الغالب معد للاستهلاك في الخارج (البلدان الامبريالية) مما يؤدي الى تخصص الانتاج الزراعي على الاسواق الخارجية واهمال المنتجات الغذائية الضرورية للشعب ، وبالتالي الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً مستمراً وارتباط الاقتصاد المحلي ارتباطاً متزايداً بالامبريالية واهمال مشاريع التنمية الصناعية من اجل تلبية طلبات السوق الدولية المتزايدة .

د . المبادلات التجارية : تنعكس العلاقة بين الامبريالية والعالم الثالث وتتجسد في المبادلات التجارية القائمة بين

---

(١) نهب العالم الثالث : ص ٣٨

(٢) « « « : ص ٣٩

هاتين المجموعتين من البلدان ، ان الارقام التي يذ كرها بيير جاله في هذا الصدد ليست بحاجة لتعليق ، اذ تبلغ صادرات البلدان الرأسمالية ٩٠ مليار دولار او ٦٧ ٪ من الصادرات العالمية بمجموعها ، وتبلغ صادرات الدول الاشتراكية ١٢ ٪ من مجموع الصادرات العالمية . أما صادرات العالم الثالث فتبلغ ٣٠ مليار دولار وتعادل ٢٠ ٪ من الصادرات العالمية . وفي الوقت الذي تتبادل فيه البلدان الامبريالية ٧٢٪ من مبادلاتها فيما بينها والدول الاشتراكية ٦٩ ٪ من مجموع مبادلاتها فيما بينها ايضاً ، نجد ان بلدان العالم الثالث «لا تتبادل الصادرات فيما بينها الا بنسبة ٢٢٪ ، بينما توجه ٧٢٪ من مجموع مبيعاتها الخارجية نحو البلدان الامبريالية »[1] ، وبمعنى آخر ، ان كلًا من الزمرتين الاوليين (الرأسمالية والاشتراكية) مسؤولة عن ذاتها فيما يتعلق بالقسم الأعظم من مبادلاتها ، أما العالم الثالث فملتزم تجاه زمرة البلدان الامبريالية بما يقارب ثلاثة ارباع تجارته الخارجية . هذا الارتباط شبه الكامل بالبلدان الامبريالية هو السبب في ان بلدان العالم الثالث « قد عانت في مبادلاتها مع البلدان الامبريالية عجزاً يزيد عن مليار ونصف المليار من الدولارات عام ١٩٦١ بينما كان العالم الثالث عام ١٩٤٨ في وضع رابح نسبياً »[2] .

٢ ـ تمثل هذه المبادلات ٢٥ ٪ من مجموع مبيعات البلدان الامبريالية في العالم الرأسمالي و ٧٦٪ من صادرات العالم الثالث الى المنطقة نفسها ، ولكن هاتين النسبتين المئويتين كانت عام ١٩٤٨ ، ٣٢ ٪ و ٧٠ ٪ .

٣ ـ لقد بلغت الصادرات الكلية للبلدان الامبريالية الى العالم غير الاشتراكي مبلغاً يعادل مرتين ونصف ما بلغته عام

---

(١) نهب العالم الثالث : ص ٤٦ .
(٢) « « « : ص ٤٧ .

١٩٤٨ (٨٦،٥ مليار دولار مقابل ٣٥ مليار) ، بينما لا تمثل مجموع صادرات العالم الثالث الا ما يقارب مرة ونصف من مجموع ما بلغته عام ١٩٤٨ (٢٦،٢ مليار مقابل ١٧ مليار تقريباً) .

٤ — بينما نجد ، كما ذكرنا ، أن صادرات البلدان الامبريالية اصبحت اقل ارتباطاً نسبياً بالعالم الثالث، فان صادرات العالم الثالث ترتبط ارتباطاً اوثق بمجموعة البلدان الامبريالية ، والاحصاءات الموثقة التي يقدمها المؤلف ، توضح أن آسيا والشرق الأوسط يزدادان اهمية كمركز رئيسي للنهب في العالم الثالث .

وعلى العموم يلاحظ ان قيمة صادرات العالم الثالث الى البلاد الرأسمالية تزداد بنسبة ضئيلة جداً ، بينما صادرات البلاد الصناعية الى العالم الثالث تزداد قيمتها بنسبة مرتفعة جدا .

« ان انخفاض عائدات صادرات بلدان العالم الثالث بشكل عام ، يجرد هذه البلدان بشكل خطير من امكانات لجوئها الى استيراد المواد الضرورية لتنميتها وقد حسب خبراء الامم المتحدة انه لو ظلت حدود مبادلة البلدان الاقل نمواً في مستوى عام ١٩٥٠ لأضحت القوة الشرائية الاجمالية لصادراتها في حدود واردات عام ١٩٦٠ بزيادة قدرها ٢،٣ مليارات من الدولارات » [١] . هذه الخسارة الجسيمة التي يمنى بها العالم الثالث كل عام، هي احدى الاسباب الهامة لعدم توفر الموارد المالية اللازمة للسير في طريق التصنيع ، هذا الطريق الذي اوضح عرضنا السابق كله ضرورته للعالم الثالث . ان البلدان المتخلفة ستبقى عرضة للنهب الامبريالي مادامت مضطرة لأن تكون مجرد مصدر للمواد الخام ومستورد للمواد المصنعه . ولكن اذا كان الوضع كما رأينا ، فكيف يمكن للعالم الثالث ان يؤمن الموارد المالية لتطوره الصناعي ؟ هناك من يقول بأن الهبات والمساعدات التي يتلقاها العالم الثالث

(١) نهب العالم الثالث ص ٦٨ .

من البلدان الامبريالية ستمكنه من الاستعاضة عن عملية التراكم الأولي لرأس المال ، هذه العملية التي لابد منها لبدء التصنيع ، ولكن المساعدات المالية ليست في حقيقتها سوى وسيلة ، كالتجارة وسواها ، من وسائل نهب العالم الثالث . لنتفحص الأمر قليلا .

المعونات المالية : يميز مؤلف كتاب « نهب العالم الثالث » بين نوعين من المعونات المالية :

آ — المعونات ثنائية الجانب .

ب — » متعددة الجوانب .

ويمكننا قبل الانتقال الى التفاصيل القول أن التيار الصافي من الرساميل والهبات العامة الآتية من مجموع البلدان المتقدمة الى البلدان المتخلفة عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ يمثل على التوالي ٤٨و٠٪ و٦٠و٠٪ من الانتاج الداخلي والاجمالي للبلاد المتقدمة ، كما يمثل على التوالي ٥٢و٢٪ و ٢٣و٣٪ من تكون رأس مالها الداخلي الخام . ان مبلغ الـ ٤٣٠٠ مليون دولار (٢٨٠٠ هبات + ١٥٠٠ قروض طويلة الأجل) ، وهي المعونة العامة لبلاد العالم الثالث عام ١٩٦٠ ، تمثل اسهاماً من كل مواطن من البلاد الرأسمالية المتطورة يقل عن سبع دولارات (منها دولاران واكثر قابلة للتسديد) . ان هذا المن لايزيد الانتاج الخام لمجموع البلاد التي أفادت منه بأكثر من ٥و١٪ وهو لايقدم للمواطن الواحد من سكانها اكثر من ٣ دولارات في السنة (منها دولار يجب تسديده) ، « فليس هناك من يرهق نفسه ، وليس هناك مايدعو الى الانتشاء(١) »

فاذا راعينا أنه يجب على البلاد المتخلفة أن تستثمر ، كي تبدأ بالخروج من تخلفها ، كل سنة ما مجموعه ٧٥ مليار دولار ، أمكننا التعرف على مدى « الاسهام

(١) نهب العالم الثالث : ص ٨٥ .

الكبير » الذي تقوم به البلاد الامبريالية لمساعدة هذه البلدان في السير في طريق التصنيع .

ان المعونة التي تقدمها البلدان الامبريالية، خاصة المعونة ثنائية الجانب، تنزع الى الانخفاض بدلاً من ان ترتفع . وهي فضلاً عن ذلك مرتبطة بجملة أهداف اهمها :

أ — تدعيم الفئات الحاكمة في البلد المتلقي .

ب — رفع قدرة البلد المتلقي على شراء المواد المصنعة من البلد المانح .

ج — ربط البلد الممنوح بالبلد المانح اقتصادياً .

د — امتصاص فائض القيمة من البلد الممنوح .

هـ — تدعيم مركز الرأسمالية في البلد المانح ، ورفع قدرته على المنافسة في الاسواق الدولية .

و — اعطاء الاستغلال صبغة عقد أو معاهدة اقتصادية .

أما المعونات المالية المتعددة الجوانب فتضيف الى الأهداف السالفة هدفاً آخر هو منح الاستغلال طابعاً عالمياً يختفي وراء مؤسسات عالمية تابعة للامم المتحدة، وبالتالي تمييع النضال الوطني والتحرري ضد سيطرة الامبريالية الاقتصادية ، وكمثال على ذلك نورد كيفية توزع الاسهم في المصرف الدولي للانشاء والتعمير ،أهم المؤسسات التابعة للامم المتحدة والمانحة المعونة . ان اسهم هذا المصرف تتوزع كما يلي : الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا ، المانيا الغربية ، الصين تملك ٥٠٪ من الأصوات ، فاذا أضفنا اليها كندا واوستراليا واليابان بلغ مجموع الأصوات ٧٦و٥٨٪ . بذلك نستطيع أن نتصور الاتجاه السياسي الذي يشرف على توزيع القروض والاسهامات . مثال آخر . عام ١٩٦٣ أقامت الشركة المالية الدولية (مؤسسة تابعة للأمم المتحدة ايضاً) مصرف نيجيريا الجديد للتنمية الصناعية ، هذا المصرف الذي هو امتداد الشركة استثمار

« واقعة كلها تقريباً في ايدي مصارف وشركات صناعية بريطانية اسمها I.C.O.N »[1]. لقد توزع حق التصويت كما يلي :

الشركة المالية الدولية ٤٩٩٨٢٧ جنيه نيجيري .

المساهمون القدماء من I.C.O.N ٤٩٢٧٧٥ جنيه نيجيري .

المساهمون الجدد ٤٨٧٢٢٥ جنيه نيجيري .

« علماً بأن هؤلاء الاخيرين جميعهم مساهمون أجانب ، وهم اما مصارف أو شركات مالية ، اسماؤها ذات أنغام انكلو ساكسونية ويابانية والمانية وفرنسية »[2] . وبالنتيجة فان حوالي ثلاثة ارباع حق التصويت تملكها رساميل ذات مصدر امبريالي مع الشركة المالية الدولية . من هذين المثالين يمكن استنتاج الفارق الأساسي بين نوعي المعونة ، الثنائية والمتعددة الجوانب ، فبينما تهدف الأولى الى « المحافظة على مصالح امريكا هنا وبريطانيا هناك وغيرها من البلدان الامبريالية هنالك ، تهدف المعونة الدولية بتعميم اكبر الى المحافظة على السياسة العامة والمصالح المشتركة لمجموع المعسكر الامبريالي[3] » .

الاستثمارات الخاصة واعادة التحويل

بلغت الاستثمارات الخاصة في العالم الثالث عام ١٩٦٠ ١١٠٠ مليون دولار لتهبط عام ١٩٦٢ الى ١٠٠٠ مليون دولار وسنة ١٩٦٣ الى ٨٠٠ مليون . في نفس الوقت « ازداد تيار الرساميل الخاصة الطويلة الأجل القادمة من بلاد رأسمالية متقدمة الى بلاد رأسمالية اخرى متقدمة[4] » ، ولقد ازدادت الاستثمارات الخاصة المباشرة للولايات المتحدة بين ١٩٥١ و ١٩٥٩

(١) نهب العالم الثالث : ص ٩٦ .
(٢) نهب العالم الثالث : ص ٩٦ .
(٣) نهب العالم الثالث : ص ٩٨ .
(٤) نهب العالم الثالث : ص ١٠٠ .

بنسبة الضعف في البلاد المتخلفة ، ولكنها ازدادت بنسبة ثلاثة اضعاف تقريباً في البلاد المتقدمة .

ان المجموع الكلي للهبات والقروض العامة لم ينزع الى الزيادة منذ ١٩٦٠ ، بـل على العكس زادت على الأرجح إخراجات الفوائد وحصص الأرباح ، فمما لا شك فيه أننا نستطيع أن نعتبر اليوم بأن الاخراجات في مجموع العالم الثالث للفوائد وحصص الأرباح توازن موازنة كافية الادخالات الجديدة للهبات والقروض العامة ــ الاستثمارات الخاصة. ويقول حمزه علوي « أن الولايات المتحدة سجلت بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠ اخراجات من الأموال العامة تقدر بـ /٢٣/ مليار دولار وسجلت ادخالات تقدر بـ ١٩ مليار دولار، وفي الوقت نفسه تم اخراج ٢٠ مليار دولار على شكل استثمارات خاصة مقابل إدخالات آتية من إيرادات هذه الاستثمارات تقدر بـ ٢٥ مليار دولار . ان مجموع اخراجات الرساميل من البلاد المالكة لها يتم تعويضه ، بل أكثر من تعويضه عن طريق الادخالات الناشئة عن الأرباح الآتية من ما وراء البحار » (١)

هكذا تحدث الرساميل الخاصة بالامبريالية الموظفة في العالم الثالث تعويضاً هائلاً لفائض القيمة الذي يحول القسم الأعظم فيه بصورة مشروعة أو عن طريق التهريب الى العواصم الغربية ، إذ يساعد على التكديس الرأسمالي . « ان هذا التمويل (مضافاً الى الفوائد واقتطاعات القروض العامة) يثقل كاهل ميزان المدفوعات لبلاد العالم الثالث ، ويخرج كتلة الأرباح المحولة الى الخارج من عملية التنمية التراكمية للبلد المستقل لهذه الرساميل، فتأخذ فيه المؤسسات الاجنبية شكل « إقطاعات » من جميع الوجوه »(٢) .

---

(١) نهب العالم الثالث ؛ ص ١٠٦

(٢) نهب العالم الثالث ؛ ص ١١٨

النتيجة

اذا كان التحرر السياسي من الاستعمار هو الآن في مراحله الاخيرة فان هذا التحرر لايترافق بتحرر اقتصادي لبلدان العالم الثالث، بل هو يسير في اتجاه معاكس له، إذ أن الامبريالية قد استطاعت تطوير استغلالها وفرض اساليبها وحاجياتها على السوق الدولية والمنتجات العالمية لدرجة جعلت كل مالاعلاقة له بمطالبها الاقتصادية يفقد أهميته ويتلاشى. ان سكان بلدان العالم الثالث ليسوا مجبرين اليوم على الانتاج لأن جيوش الغزاة الأجانب تضع المسدس على صدغهم، بل لمنع مصيرهم المادي من الوصول الى الهاوية التي تتسبب بها العلاقات الدولية القائمة بين البلدان الامبريالية وبلدان العالم الثالث، هذه العلاقات التي يعتبر انخفاض « حدود التبادل » أهم مايميزها، حيث يجب عليك ان تشتري بكميات متزايدة دوماً سلعاً متناقصة، أي تشتري بمواد اولية ذات اسعار تتدنى باستمرار مواد مصنعة ذات أسعار ترتفع باستمرار. إن العالم الثالث يسير في طريق مسدود ولا منفذ له سوى بناء اقتصاد وطني (في كل بلد) قائم على استغلال الموارد الوطنية استغلالاً اقتصادياً ملائماً لتطور العالم، وذلك لايتم الا بالاعتماد الكلي على الجهد الذاتي في عملية التراكم الاولية اللازمة لكل تصنيع، وليس هذا ممكناً إلا من خلال تقشف اقتصادي يفرضه الشعب على نفسه لبضعة سنوات، لأن العالم الثالث لايملك أي خيار آخر. ان الطريق الوحيدة التي تستطيع انقاذ العالم الثالث (والعالم بكامله) من الانحدار في طريق الهاوية، هي النظام الاشتراكي الذي يستطيع إرساء قاعدة اقتصادية هي أقل ماتكون تأثراً بالتقسيم الدولي للعمل بصورته الحالية. ولم تعد الاشتراكية الآن ترفاً فكرياً، او خياراً بين نظامين لكل منهما مبرراته، بل فرض على شعوب العالم الثالث ولامفر لها منه، وكل خيار آخر انتحار وهلاك. ان هذه هي النتيجة

الحتمية التي يصل اليها المرء بعد قراءة كتاب « نهب العالم الثالث » ، هـذا الكتاب الذي يقدم حقاً صورة مفصلة عن القاعدة والاطار الاقتصاديين اللذين لا مبرر للثورة بدونهما ، بل لا وجود لها بدونهما ، ونعني بالقاعدة والاطار الاقتصاديين خلق اقتصاد وطني مصنع ومحاربة النهب الامبريالي بالاعتماد على النفس . هذه هي خلاصة الكتاب ونتيجة الثورية المفيدة .

الشعر الصيني (١)

تأليف : باتريسيا غويللرماز

ترجمة : عبد المعين ملوحي

تحليل : ابن ذربل

مؤلفة الكتاب هي السيدة (باتريسيا غويللرماز) ، وهي أديبة ذواقة ، عاشت مع زوجها في الصين زهاء ثلاثين عاماً ، فتعلمت اللغة الصينية وأحبت أدبها . رغبت في التعريف بالشعر الصيني ، فاختارت نماذج مختلفة من مختلف العصور حتى اليوم ، وتوفقت في صنيعها ؛ اذ مهدت لمختاراتها بمقدمة قيمة ودقيقة في الشعر الصيني تاريخه ، بنيته ، وزنه ، عروضه ، خصائصه الأدبية الشعرية . كما حرصت على توضيح بعض العبارات والكلمات فيه ، من مثل الأساطير ، والعادات ، والتقاليد ، أو أسماء الأعلام ، والمدن ، والأحداث .. فأضفت بذلك كله على الكتاب مسحة علمية ، أدبية ، تقرب تناول مضمونه ، وتيسر التعاطف مع أناشيده ، وقصائده ، وموضوعاته ..

(١) منشورات وزارة الثقافة — دمشق ١٩٦٧

والملاحظ على الكتاب أن المؤلفة انتهجت في جمع مواده، أو عرضها، التسلسل التاريخي، حسب التقويم الزمني؛ والذي يرجع في الشعر الصيني الى عشرين قرناً قبل الميلاد، ويستمر في حياة متطورة حتى اليوم. وهذا المنهج من محاسن الكتاب حقاً، ويعطينا فكرة صادقة، وحية عن هذا الشعر المتوارث جيلاً بعد جيل..

الصين أمة حكمة وفن وشعر؛ وحضارتها من أقدم الحضارات، وأصدقها أصالة، عبرت بها عن شخصيتها، وهموم شعوبها، ومجتمعاتها، وهموم حياتهم اليومية..

وقد لعب (الشعر الصيني) دوره الطليعي في الحياة منذ أقدم عصور الصين الحضارية؛ فكان صورة الحياة والمجتمع والنفوس، والطبيعة.. وعبر عن مشاغل الحكام، أو هموم الشعب، وصوّر لواعج العبادة، أو أصداء القرابين والأعياد، ورافق الغناء والرقص الشعبيين منذ القدم، مرافقته هموم الناس في حياتهم اليومية وماجرياتها المختلفة..

وقد ظلت صلة الشعر بالحياة والمجتمع والنفوس وثيقة في الشعر الصيني؛ خاصة أن الأسر المالكة، وقصور الحكام، ومعابد رجال الدين، وبيوتات الفنانين كانت تعنى به المرّة تلو المرة، فتجمعه، وتصنفه، وتحفظه، وأحياناً تنقحه، وتشدّ به..

وأول سجل رسمي للشعر الصيني هو (ديوان الشعر) المسمى: - شيه شانج - وهو أول مجموعة شعرية رسمية وموثوقة في الصين، يقال أن الحكيم (كونفوشيوس) [٥٥١-٤٨٩ ق.م] أشرف على انتقاء قصائدها التي تربو على (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسين قصيدة، من بين ثلاثة آلاف قصيدة وأغنية شعبية ترجع الى عصور سحيقة..

وينقسم (ديوان الشعر) - شيه شانج -، الى ثلاثة أقسام:

أ - فانج، أو قصائد الأخلاق؛

وهي أرقى قصائد المجموعة ، وذات مصدر شعبي .

ب ـ يا أو قصائد البلاط ؛ وترافق أعياد القصر والشعب ، وتصف الانسجام والوئام بين القصر ، ورعاياه ..

جـ ـ سانج ، أو أغاني العبادة ؛ وهي موجهة الى الآلهة ، او الى اسلاف الاباطرة ، وترافق العبادة والقرابين ..

ثم انه قبل الميلاد بنحو قرن او أقل عاد المسؤولون الصينيون من حكام ومفكرين وادباء ، وفنانين الى جمع القصائد الشعرية ، والاغاني الشعبية في أقاليم الصين ؛ وكانت حصيلة عملهم المجموعة المعروفة باسم (يوويه فو) أي (دائرة الموسيقى) . ويعود الفضل في جمعها الى الامبراطور (وو) ، وهو شاعر يعزى له البحر السباعي الحركات ، بعد أن كان الشعر التقليدي تؤلف غالبيته من أربع حركات ، أو أطوال أخرى .

وقد صنفت (دائرة الموسيقى) القصائد الى :

أ ـ أغاني البلاط وتضم : ١ ـ أغاني الطقوس الدينية ٢ ـ أغاني العيد ٣ ـ أغاني الرقص .

ب ـ الأغاني ذات الأصول الأجنبية ، وتضم : ١ ـ أغاني القيثارة والبوق ٢ ـ أغاني الحب ٣ ـ الأغاني المنوعة .

جـ ـ الأغاني الشعبية وتدور حول الحب والحرب والعادات والتقاليد وشؤون الحياة ..

وقد خدم هذان الأثران الشعريان التقليد الشعري الصيني خدمات كبرى ، وأكدا صلة الشعر بالحياة ، وصلته أيضاً بالموسيقى ؛ بحيث أن الشعر كان صورة الحياة ؛ وكان ايضاً صنو الغناء والرقص والموسيقى على العموم ..

وفي عهد أسرة تانج (٦١٨–٩٠٧م) ظهر اكبر شعراء الصين وهم : (لي بي) الشاعر الأهي الذي طور التقليد الشعري وجعل موضوعات حياته مضامين لقصائده ، من مثل لذائذ الحب ، والخمر ،

٩ *

وافراح الحقول ، او الحرب ونكباتها ،
أو شكوى الزمان ، وغير ذلك
و (توفو) الحكيم الشاعر ، والذي أثرت
عنه قصائد فريدة في الحرب والتجنيد
والقتال ، والسلم والسلام . و (بي شوبي)
الشاعر الشعبي ، الذي تفرد ببساطته ،
وحبه للبسطاء ..

من قصيدة (أغنية حسرات بلانهاية)
للشاعر (بي شوبي) يصف اعدام
الجيش للأميرة الغالية - يانج كي في -
محظية الامبراطور هو آن تسانج - ،
بعد تواطئها مع أحد ثوار الأتراك
الاسرى ، نقتطف هذه المقاطع :

- شعر يموج كالسحاب ، ولون من
الزهر ، وأقراط من الذهب
خلف الأكلّة الوردية عرفت ليالي
ربيعية
ما أسرع ما تشرق الشمس في أمثال هذه
الليالي القصيرة ..
كانت تحف بالامبراطور في المسرات
والحفلات ، لا تخلو من ثل
هي وحدها تشاطره نزهاته في ربيعه
ولياليه ..
في الحريم كانت تعيش ثلاثة آلاف امرأة
جميلة ،
ولكن الحب كان يحيط بها وحدها .

* * *

هزت طبول الحرب الارض من
(يوبانج)
خرست أغنية الثوب ذي الريش
الملون بألوان الغيوم
غمر الدخان والغبار القصور التسعة ،
هرعت ألف عربة وعشرة آلاف فارس
الى الجنوب الغربي ،
تقدمت رايات الامبراطور ذات الريش
خفاقة ،
ثم توقفت على بعد مائة (لي) من
أبواب العاصمة .
رفض الجيش ان يمضي في طريقه ، وكان
لزاماً ان تقبل شروطه .
المرأة الجميلة ذات الأهداب الطويلة
أعدمت أمام الخيل ..

الريش ، وعصفور الذهب ، ودبوس اليَشْبَ ،
وحليها ، لم يلتقطها أحد . ظلت هناك ملقاة على الارض
الملك الذي لم يستطع انقاذها خبأ وجهه بكفيه
نظر اليها نظرةً أخيرةً، وبكى بدموع من ماء ودم ..[1]

* * *

وفي عهد أسرة سانج (٩٦٠ — ١٢٧٩ م .) ظهر الشاعر الغنائي الكبير (تسي) الذي مال الى الذاتية من حب ، وألم ، وذكريات، ثم الى الطبيعة ووصفها . وعزف عزوفاً ظاهراً عن الموضوعات الواقعية اليومية والاجتماعية.

أما (الشعر المسرحي) فعرفته الصين في عهد لاحق ، مع أسرة (يوان) والتي منها جنكيز خان ، وحفيده قوبللي خان ؛ والذي اتخذ بكين حوالي (عام ١٢٨٠ م .) عاصمة له . وهذا الشعر عرف باسم (أغاني شو) والتي تتعاقب على المسرح ، حسب الحوار بين الممثلين وحديثهم واشاراتهم وهو شعر قريب من عامة الشعب ولغته اليومية ، يتنكب التقاليد الاسلوبية ، وتصوير الشخصية الفردية[2] ..

وقد ظل الشعر الصيني يتراوح بين هذه التيارات المختلفة من اخلاقية ، وواقعية ، وعاطفية، وموسيقية، وايجاز، ورمز ، وتلميح . وفي مطلع القرن الحالي اشتدت الدعوة الى البساطة ، والتراجع عن العناية بالشكل ، اوالتعبير

---

(١) في نهاية القصيدة يتوجه راهب تاوي بامر الامبراطور الى الجبل المقدس الذي تحولت فيه (يانج كي في) الى إلهة باسم (تي شن) ؛ وهناك تسلمه رسالة تبلغ الامبراطور بها حبها الخالد له ، واخلاصها الابدي ..

(٢) لم تنوه المؤلفة بازدهار الشعر المسرحي الحديث بأنواعه المختلفة في الصين اليوم ؛ وهو ماتطالعنا به يوماً اثر يوم دور النشر ، والمجلات الأدبية ، والافلام الغنائية والراقصة الحديثة ...

عن الشخصية ، وصار في ظل الجمهورية الصينية (١٩١١ - ١٩٤٩ م .) الى اصطناع لغة العامة البسيطة ، والى معالجة القضايا العصرية والواقعية .

وقد استمر هذا الاتجـــاه في ظل الجمهورية الشعبيـة (١٩٤٩ م .) فالتزم الشعراء فيه قضايا أمتهم ومجتمعهم ، وموضوعات الكفاح من اجل حياة افضل وغد أفضل ؛ وآثر البساطة ، والواقعية الاشتراكية ..

تلك ملامح من تطور (الشعر الصيني) عبر القرون ، تعكس لنا عناية الشعب الصيني وحكامه بالشعر ؛ وترينا على الخصوص صلة الشعر بالموسيقى والغناء والرقص ، وصلته بالمجتمع ، والنفوس ، والبيئة .. وهو في معظمه قصيد غنائي ، واقعي ووصفي ، فردي وجماعي ، اجتماعي ومن الحياة اليومية ، مليء بالصور والعاطفة والاحساس والموسيقى .

ومع ذلك يمكننا ان نسجل انه ان وجدت في الشعر الصيني قصائد تصف الحرب والمعارك والقتال والنكبات ، كما هي الحال في الشعر العربي ، الا انه لا يوجد في الشعر الصيني (ملاحم) بالمعنى الصحيح للمصطلح الأدبي والشعري مثل الألياذة والأوديسة لهوميروس ، او الشاهنامة للفردوسي ، او غيرها ..

واذا كان الارث الشعري السابق على (ديوان الشعر) ـ شيه شانج ـ هو بالاحرى ارث معابد وقصور ، اوغناء شعبي ، ويمكن ان تقابله عندنا الاشعار الدينية ، والاجتماعية ، والغنائية التي وجدت في اوراق البردي ، أو في رأس شمراء وماري وغيرها ؛ الا ان (الشعر الصيني) اللاحق شبيه بالشعر العربي من حيث واقعيته ، وغنائيته ، وانسانيته .

واذا ذكرنا ان (اللغة الصينية) لغة قديمة تصور تصويراً ؛ وان كلماتها ذات مقاطع واحدة ، او أصوات واحدة ، قدرنا القيمة .. التي تعقد للايجاز ، والدقة ، والاستعارة ، والكناية ، والتورية ، والرمز

أيضاً ، والتاميح في الشعر الصيني .. ان ميزة الشعر الصيني فنيتـــه الموسيقية التصويرية، وعمق انسانيته ،وعلى الخصوص (ايجازه) الذي يكتفي بصورة عن اوصاف ، وكلمة عن سطور ، ولمحة عن شروح . وبذلك ايضاً يعود فيقترب الشعر العربي منـــه الذي آثر الايجاز والبديع وخدمها باسلوبه الخاص ..

ان (اللغة الصينية) وحيدة المقاطع وهي ترسم رسماً؛ كلُ رسم لكلمة ،وكل كلمة لصوت .. و (الاصوات) اي الكلمات تتمايز فيما بينها من حيث موسيقاها ولحنها ، فمنها (المبسوط) ، ومنها (الحاد) . ومن تعاور هذه الأصوات المختلفة ، او التنويع في رصفها ، واطوالها : أربعة ، خمسة ، سبعة ، تسعة الخ ، يتألف الشعر الصيني ..

وقد استعمل المترجم لفظة (تفعيلة) لهذه المقاطع العروضية ، أي الكلمات والاركان ، وذلك استئناس صائب منه؛ ولكن التفعيلة في عروضنا العربي شيء متميز ويقوم على تعدد الحروف والمقاطع في الكلمة الواحدة ، أو في الوحـــدة الايقاعية الواحدة .. وقد كان للعروض والقوافي تقاليد عريقة في (الشعر الصيني) ، وله تجارب متنوعة خدمها رواد عديدون ظلوا يقربون لغة الشعر من الواقع والحياة ..

إيضاح

تعتذر المجلة لسهوها عن الاشارة الى ان مقال الكاتب هاني الراهب الذي نشر في العدد / ٧٢ / وعنوانه « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » هو تلخيص وتحليل لكتاب « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » لفايز صايغ ترجمة عبد الوهاب كيالي ، وهو من منشورات مركز الأبحاث في بيروت التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

الأيام الحاسمة

قبل معركة المصير وبعدها (١)

تأليف : اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عرض : م . ك .

صدر هذا الكتاب قبيل العدوان الاسرائيلي الاخير على البلاد العربية في الخامس من حزيران بوقت قصير ، وكانت نواياه مؤلفه تنصب على توعيـة العرب بالمعركة القادمة وشرح ابعادها ، ولهذا فقد تعرض لمختلف اوجه الموقف : عسكرية واقتصادية وسياسية ، بصورة مبسطة موجزة ، ومع ذلك فللكتاب بفصوله التسع اهمية كبيرة لسببين :

١) لأنه برهان على ان الفكر العربي العسكري لم يكن دون مستوى الاحداث ، وانه لم يكن سبباً رئيسياً في الهزيمة ، فقد استطاع اللواء الركن خطاب تحديد مواعيد العدوان بدقة ونصح بالاستعداد لحرب طويلة الأجل ، وذلك قبل وقوع الحرب ، كما تنبأ بأن العدو سيحرز بعض الانتصارات الأولية بعد بدء القتال ، ورد ذلك الى ان كل مهاجم يحرز بعض

(١) طبعة أولى — وزارة الثقافة والارشاد — بغداد — العراق — تموز ١٩٦٧ .
طبعة ثانية — دار لفتح للطباعة والنشر بيروت — لبنان — آب ١٩٦٠ .

الانتصارات ربما يستطيع القادة العسكريون المدافعون تحديد وجهة الهجوم وصده وتدمير قوات العدو، ولهذا فهو يؤكد انه يجب على العرب في الايام الاولى للحرب الصمود الى حين القيام بهجوم مضاد مهما كانت التضحيات .

٢) لانه برهان على ان الحدود بين خسارة معركة وخسارة حرب هي حدود مائعة ، إذ يمكن في ظل ظروف معينة أن تتحول خسارة المعارك الاولى ، وهي في هذه الحالة معارك حزيران ، الى خسارة للحرب والعكس صحيح . لهذا ينصح المؤلف بعدم الركون الى جملة « لقد خسرنا معركة ولكننا لم نخسر الحرب » بل يحث على العمل الدؤوب على كل الجبهات ، وخاصة العسكرية ، لتحويل هذه الجملة الى واقع فعلي . كما يذكّر بأن العدو ومن وراءه قد يحولون نصر حزيران الجزئي الى نصر كامل .

فضلاً عن ان هاتين الحقيقتين يتضمن الكتاب تقييماً عسكرياً عملياً لدور البترول العربي في الحرب المحلية والعالمية ويقرنه بقدرة العرب على شل الحياة الاقتصادية للدول المعادية ، كما يشرح الدور السياسي والجغرافي للوطن العربي من الوجهة العسكرية .

إن اللواء الركن خطاب ينصح بشن الحرب في اقرب فرصة سانحة ، شريطة ان تكون حرباً طويلة الامد ، يفرض فيها العرب على عدوهم استراتيجيتهم القتالية ولا يتركون له حرية اختيار مكان وزمان الحرب كما فعلوا حتى الآن . وهو يعتقد ان الحرب هي السبيل الوحيد لخلق موقف عربي موحد ، لانها تصهر الامة العربية في بوتقة واحدة وتربطها برباط الدم الذي لايعترف بالاقليمية والحدود .

على الرغم من ان معظم الحقائق الواردة في هذا الكتاب قد اصبحت معروفة للقارىء العربي ، الا ان الكتاب لايزال يحتفظ بقيمة كبيرة كحلقة مهمة في سلسلة التفكير العربي الموضوعي النزيه، هذا التفكير الذي لابد منه لإحراز النصر.

النجم والدّرويش

شعر : أرشد توفيق

عرض : ظافر عبد الواحد

قصة إبراهيم الخليل تحولت عند الشاعر العراقي أرشد توفيق في مجموعة « النجم والدرويش » الى قصة بحث الإنسان عن الحقيقة . وإبراهيم الخليل ليس مجرد درويش فتنته النجوم والكواكب بنورها فراح يبحث عن ربه بينها ، ولكنه الإنسان الحائر الذي مايزال يبحث عن الحقيقة . فالدرويش هو الانسان، والنجم هو مايحسبه الحقيقة ، والعلاقة بينهما هي الحيرة ، ونستطيع أن نجد المعادلات في هذه المجموعة الشعرية .

ففي قصيدة « النجم والدرويش » التي تعرض قصة إبراهيم الخليل وهو يبحث عن ربه ، يقول :

أنا الشحاذ أبحث في متاه الموج والعتمة
عن النجمه ..
عن النجمه ..[1]

فالشحاذ هو الدرويش في بساطته ، والنجمة هي مايحسبه الحقيقة ، والعلاقة بينهما علاقة بحث .

وفي قصيدة « كيشوت[2] » ، يقدم قصة دون كيشوت تقديماً جديداً فيقول :

كيشوت مازلت على الشاطىء
المهجور يغشى ناظريك انتظار
في آخر الدنيا على ضفة ..
قلوعها .. ميتة الادكار
تضحك من ظلك إذ يرتمي
كالخيبة الصفراء .. فوق الجدار

كيشوت هو الدرويش في بساطته ، وظله بديل عن النجم ، غير أن علاقة الدرويش بالنجم هي أنه ينتقل من نجم الى نجم ، أما علاقه دون كيشوت بظله فهي انتقال ظله معه ..

وفي « قصيدة الى زوربا [3] » التي تحلل شخصية زوربا اليوناني يقول :

---

(١) مجموعة « النجم والدرويش » – الموصل – العراق ١٩٦٨ ص ٩
(٢) ص ٢٧
(٣) ص ٣٠

يازوربا .. ياطفل الأرض
يازوربا .. ياعبق الأرض
كلماتك ساذجة عذراء ..
كلماتك شوق ..

زوربا هو الدرويش الذي يعيش على الفطرة ، والشوق علاقة بين حدين أحدهما زوربا والآخر ربما كان نجماً أوحقيقة ، وهذا من مميزات الرومانتيكية التي تترك لك شيئاً لاتقوله .

وفي قصيدة « ثلج [1] » التي يصف فيها وحدته في الشتاء ، يقول الشاعر :

حل الشتاء بقلبي العاري

فهو هنا يتقمص الدرويش ، وحلول الشتاء في قلبه يعادل أفول النجوم أمام ناظري إبراهيم الخليل ، وشعوره بقلبه يعني عودة العلاقة بينهما الى مرحلة البحث ، حسب نظرية هيغل في المدلول ، حيث يرى أن العلاقة بين الذات والموضوع هي علاقة بحث وأن العلاقة تزول حين ينتهي الفهم الى الحب [2] .

وطالما أن الشاعر يشعر أن الشتاء قد حل في قلبه العاري ، فقد أصبح قلبه موضوع بحث .

وفي « أغنية الى شهرزاد [3] » يتصور نفسه درويشاً هندياً :

---

(١) ص ٣٦
(٢) Jean Wahl - Le malheur de la conscience dans la philosphie de Hegel .
(٣) النجم والدرويش — ص ٣٩

غنيت كدرويش هندي ..
ذلة قلبي في أمواج الخلجان
ياليلى .. يازهر الوديان ..
ضيعت سبيلي .. وأنا أبحث عن عينيك ،
وأضعت اللؤلؤ والمرجان ..

فالدرويش هو الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة « أبحث عن عينيك » .

وفي قصيدة « مات الفردوس ! [1] » يخاطب الشاعر الفرنسي رامبو:

ما أقسى عودة دون كيشوت
يحمل ، لا أوسمة النصر
بل حفنة رمل

وقد رأينا أن دون كيشوت هو الدرويش وهو في بحثه عن الحقيقة « أوسمة النصر » لم ير غير نجوم آفلة « حفنة رمل » .

وفي قصيدة «أزهار الوهم[2]» يطلب من امه ان تحكي له الحكايا الخرافية التي كانت ترويها له في طفولته :

وتحدث : لكن لارخ
يأتي أو قصر من زهر
لاجنح لروحي يا أماه
آه .. من أطفأ لي قمري

(١) ص ٥ :
(٢) ص ٨ : .

مأساة الدرويش في أفول كل نجم يظنه ربه ، ومأساة الانسان في أنه كان مؤمناً بقضية اكتشف انها ليست حقيقة لاتنطفىء « من أطفأ لي قمري » .

ونرى الشاعر « عاشق شهر زاد[1] » يقول :

قيل لي أتعبت أبواب الهوى		وتعشقت خيـالاً أخضرا
سائلا عن زهرة في لونهـا		حلم الزوح تصلي سحرا
باحثـاً عن نغمة مسحورة		يترامى الكون فيها مزهرا

فكما ان الدرويش يبحث عن نجـم ، يبحث عاشق شهر زاد عن نغمة مسحورة .

وفي قصيدة «بغداد وبغداد[2]» التي يصف فيها تركه كلية الحقوق يقول:

حين الحاجب الكذاب نادى : جاء شاعر
.. جاء درويش مهاجر
ضحكت بغداد قالت : اطردوه
ودعوه ..
في رصيف الليل يبكي في الرصيف ..
انه عصر الخسوف
فلمن تهوى القمر ..

فالدرويش هو الانسان يرصد القمر في عصر الخسوف ..

وفي قصيدة « ميدوزا والقمر[3] » يقول :

---

(١) ص ٥٢ .

(٢) ص ٥٤ .

(٣) ص ٥٨

نحن صغناه من الوهم .. فخلينا نغني
حوله ، ليلتنا البيضاء نجوى وتمن
لاتقولي مات قيس وانطوى الحلم بظن
فأغانينا نجوم حوله .. أسراب لحن

«نحن» دراويش صغنا قمراً من الوهم ، وجعلنا أغانينا حوله أسراب لحن.

ويقول الشاعر في قصيدة « الرجل المريض(١) » :

رأيته في حانة ناضبة الجرار ..
يعب من كؤوسها الخاوية ..

فالدرويش هنا رجل مريض نجومه جرار ناضبة و كؤوس خاوية يعب منها ، والعب كناية عن البحث .

وفي « اغنية في نيسان(٢) » تقول له حبيبته :

فتعال خذني كالأسيرة لاتدع في الحقل شيئا

يتقمص الشاعر هنا الدرويش ، وحبيبته هي السماء يبحث بين نجومها .

ويقول في « رباعيات حائرة(٣) » :

نسرين خليني مع الشحاذ يرحل في الدروب
وأسائل الأغوار عن معناي .. عن جرحي الغريب
عن نجمة ضاعت فخيم بعدها حزن الغروب
أنا لست أعرف من أنا ، فمتى سأعرف من حبيبي ؟

---

(١) ص ٦٠

(٢) ص ٦٣ .

(٣) ص ٦٥ .

والشاعر هنا أيضاً درويش يريد أن يرحل مع الشحاذ ، ليسائل الأغوار عن معناه .. عن نجمة ضاعت .. وهو في حيرة لا يعرف من هو . انه درويش صوفي ، كلما أفل نجم سأل عن حبيبه .

وفي « مقاطع صغيرة[1] » يؤكد أن النجم غير ثابت :

والنجم يرقص في السماء
أبداً كريشة كستناء

ويقول في قصيدة « العودة[2] » :

بلى ..
قد عاد سيزيف العجوز الى مدينتنا
بلا عبء .. بلا صخرة
بلى .. قد عاد يحمل – واهن الأقدام –
لكن ، نفسه الحيرى

سيزيف العجوز درويش ، لأن سيزيف ولد قبل الميلادوصورة الدرويش عندنا صورة عجوز . وسيزيف ينتقل من مدينة الى مدينة ، كما ينتقل الدرويش بين نجم ونجم ، وقد يعود الى نجم تركه . ويفسر الشاعر أسطورة سيزيف ، فالصخرة التي حكمت عليه الآلهة بأن يرفعها دائماً الى أعلى قمة في الجحيم لتتدحرج وينزل لرفعها ثانية ، هي النفس الحيرى التي حكم على الانسان أن يحملها .

ويقول في قصيدة « كف وسماء »[3] :

---

(١) ص ٦٩ .
(٢) ص ٧٣ .
(٣) ص ٧٦

السائل الأعمى على الأبواب يبسط للظلام ..
كفاً يقبلها السقام

فالسائل الأعمى هو الدرويش ، والأبواب هي النجوم ، وبسط الكف في الظلام عنوان الحيرة .

وفي « أغنية للريح »[1] يقول :

وفي أيلول قلبي غيمة تبكي بلا وطن ..

قلبه درويش ، أو غيمة بلا وطن تنتقل من نجم الى نجم ، والبكاء تعبير عن الحيرة .

ويصف ليلة عند دجلة في قصيدة « المساء الأخضر »[2] :

وزورق حبي آه في الضفة الحيرى

الدرويش زورق حب ، ولا فرق بين وجوده على ضفة نهر المجرة في السماء او على ضفة دجلة في الأرض ، وقد انعكست على الضفة حيرة الزورق .

وذهبت « بهار » الى الأبد لكن الثلج بقي يتساقط كل عام ، فكانت قصيدة « هي والثلج »[3] التي مطلعها :

الثلج .. ينثر مرة أخرى على القمم الحزينة
نجماته البيضاء .. والحجل الجميل على السفوح
غنى فأسمعه يقول :

« بهار » عاد الثلج عادا ..

---

(١) ص ٧٩
(٢) ص ٨٢
(٣) ص ٨٥

الدرويش هنا هو الشاعر ، والنجمات نجمات الثلج البيضاء ، وعودة الثلج دليل على غيابه كالنجوم وعلى الحيرة التي يسببها للدرويش .

ويقول في قصيدة « يا بائع الورد [1] » :

يا بائع الورد .. هل للورد من خبر

الشاعر هو الدرويش ايضاً ، والورد هو النجوم ، وسؤاله عنه دليل الحيرة.

وفي قصيدة « وادي الخزامى[2] » يقول الشاعر أرشد توفيق للوادي :

تمثلت أطلالاً لديك وشاعرا..   بعينيه نجمات من الحب تسطع

فالشاعر الذي يتمثله أرشد توفيق هو الدرويش الذي بعينيه نجمات من الحب ، والحب هنا يمثل مرحلة تعلق الدرويش بالنجم قبل أفوله .

وهو « عاشق في كشمير »[3] يقول لها :

جئت فأعطيني من الغابة ..

آه .. زهرتين

وازرعي بين عيوني نجمتين !

وتختتم المجموعة الشعرية بقصيدة « الى شاعرة .. [4] » التي تنتهي على الشكل التالي :

أنا والبريد وقصة فيها المنى لي مبتداها

أحلى من السحب الرقيقة في الغروب ولي سناها

هيا اضفري ورداً تتمتها ولقيا منتهاها

---

(١) ص ٨٨
(٢) ص ٩١
(٣) ص ٩٨
(٤) ص ١٠٢

واذا تعبت دعي الزهور تتمها حتى أراها
لحناً يتيه مع النجوم وكلما غنيت تاها
أنا يا وداد مع البريد فرجعي للقلب آها
ودعي الغيوم فزهرتي تهوى من الدنيا صفاها

أصبح الدرويش هنا لحناً يتيه مع النجوم .

* * *

إبراهيم الخليل وجد ربه ، ومن النـــاس من ما يزال ساجداً لأول نجم رآه فلا يرى أفوله . لعلنا مررنا بنجم الحقيقة ولم نعرفه . المهم أن يحترم كل منـا نجم الآخر .

أحزان عمي الدوكالي (١)

مجموعة قصصية

تأليف : بشير الهاشمي
عرض : ظ . ع

القصة التي تحمل المجموعة اسمها (أحزان عمي الدوكالي) قصة رجل ينتهز فرصة غياب زوجته ليتزوج غيرها ويعيش في خوف وحزن بانتظار عودتها . هذا التمزق يمكن اكتشافه في سائر قصص المجموعة .

نراه في (لعبة الصيد والغزال) حيث نجد « محمود » ممزقاً بين تقاليد الماضي التي تعتبر المرأة متعة ، وبين بناء المساواة بين الرجل والمرأة ، فيخرج من التمزق باحترام تقاليد الزواج وممارسة المساواة « .. وفجأة ارتفع صوت متحشرج في نبرات مفزعة .. امتدت أيدي لم يتبين محمود اصحابها تجذبه في عنف وتدخله البيت .. حتى باب الحجرة .. ونسي كل شيء . نسي كلمات شعبان ومنصور

(١) الكتاب الليبي ه اللجنة العليا لرعاية الفنون والاداب – طرابلس – ليبيا – يوليو ١٩٦٧ .

ونسي معها لعبة الصيد والغزال . كل ما يعرفه أن انساناً جديداً يدخل اليه ليبدأ معه حياة جديدة ...[1]». وسليمان في قصة (يوم واحد) حياته تمزق بين رغباته وواجباته « .. وأصداء بعيدة يطلقها الليل البهيم تقول له في حدة : بالتأكيد هناك وجه آخر للحياة لم تتعرف عليه بعد . . وازداد حنقه ومله وهو يواصل سيره ولا يدري أهو الذي يمشي أم الطريق هي التي تعبر من امامه . . وتناهى الى سمعه صوت كلب يألفه . . كلبهم الرابض امام بيتهم . لقد وصل البيت ودفع الباب في هدوء وتسلل الى الداخل ليصفع أذنيه سعال امه وهمهمة غاضبة من ابيه . ربما لأنه سئم سعالها ولكنه اعتاد عليه كما اعتاد هو حياته هذه . . واستلقى على سريره وفي صدره غليان غاضب يحمل النقمة على حياته التي تمضي وكأنها . . يوم واحد ..[2]».

وبطل قصة (طريد) ممزق بين واقعه واحلامه . انه يهرب الى الحلم من مطاردة الكلاب له « .. لست بحاجة لأن أمد يدي .. هيا يا صباح تعال اسرع إني جائع ولا استطيع الرؤية الآن .. واما انتم يا كلاب .. اوجوكم لا تزعجوني في نومي .. كفى صراخاً .. هناك بقايا عظام كثيرة ملقاة في الأزقة ، ابحثوا عنها واستمتعوا بها . انكم تستطيعون الرؤية في الظلام .. اما انا سأنام هنا في هذا الركن المظلم على الحشائش .. دعوني استمتع بأحلامي حتى أنام ويأتي الصباح . سأحلم بالارز واللحم والفواكه وامرأة جميلة مثل التي لعنتني هذا الصباح وهي تفتح شباك نافذتها فوقعت عيناها على منظري فاشمأزت من هذا الصباح الذي رأتني فيه .. وسأحلم بذراعي الأخرى حتى أستطيع ان أحمي نفسي من الشحاذين الذين يحرمونني من الاستجداء

---

(١) ص ١٦

(٢) ص ٢٥

في الطرق التي يجلسون فيهـــا . . نعم لماذا لا أتمنى هـذا كلـه ؟ . . أليس هو حلم ؟ . . . [1] » .

وفي قصة (نغم وليلة صامتة) البطل ممزق في ليـلة صامتـة بين جاره حسين وحبيبته فتحية والعم فرج » ولم اثر انتباهاً الى حسين الذي نام بنفس السرعة التي يضحك بها ، فالنغمات التائهة من عود عمي فرج كانت تنساب مع هدوء الليل وتملأ علي كل شيء . . وتحملني الى أجواء بعيدة كنت أرى فيهـا وجه فتحية الضاحك وعبثها الصبياني وتغمرني بعواطف لا ادرك كنهها واضحك . . أضحك اضحك وحدي في الظـلام . . وخيوط من الضوء كانت تتسلل في هدوء من شقوق الباب . . [2] » .

ومسعود في القصـة التي تحمل اسمه يعيش تمزقاً : فهو في الظاهر يساعد الفلاحين وهو في الواقـع ينهب ارزاقهم » بريق خاطف يلمع من عينيـه ويقول : بعدما سكرت ضربت المالطي (ميرو) . . هاها . . ليلتك حرفـة يا ميرو . . الليلة ليلتك باش نتجبس من جديد ونتصبح في الشاويش عمر لما يطلقني في الصبح يمكن نحصل حاجة . . كويسة . . يمكن اكثر من خمسة قروش . وأهوى بيده الى جيبه وأخرج تفاحة ورأس فجل كان قد خبأهما فيه وهو يساعد الفلاح في جمع خضرواته واخذ يقضمها وهو يضحك في حبور . . ويصـل الى السوق ويبدأ في أعماله . . نرفع معاك القفة يا عمي » هات انشدلك الحمار . خلي عليك هات نعاونك . . وينهب من هنا ويخطف من هناك ويدس في جيوبه وداخل قميصه ان كان فمه مملوءاً ويعمد الى برودته وجسارته المعهودتين في اكثر الأحيان ان كانت حيله قد انكشفت . . ويسلبه الاعيـاء كل قواه بينما أشعة الشمس الحارة تلفح وجهـه فيلقي بجسده في ظل قرب حائط السوق

---

(١) ص ٣٥

(٢) ص ٤٧

..ويحصي أرباحه[١] .. » . وحسين في قصة (الوجه الآخر) موظف درجة سابعة ضائع بين شخصية رئيسه عرفة وشخصية صالح الذي يحمل له القهوة والشاي الى المكتب » . . وحينما انتبه اليها وضعها على حافة المكتب واخرج سيجارة . . وانتابني احساس بالخجل من نفسي . . من قلقي وسأمي بين هذه الجدران .. من تفاحة حياتي الضائعة بين يدي، وآخرون يعيشون الحياة بشكلها الآخر . . بأنيابها البارزة . ولكنهم لا يمضغون القلق ولا يعتصرهم السأم بل هم مع الحياة وجهاً لوجه . واستطيع أن أجزم لكم ان تفكير صالح منشغل الآن في عرفة . ولعله يخشى الإبطاء عليه ـ ما تخمش .. ربك يعدلها .. وامسك الصفرة بين يديه ومضى الى الخارج في خطواته المعتادة . . واستأذنكم الآن فعيناي تتلهفان على هذا الفنجان الذي امامي .. ولا ادري لماذا؟ ولكن ألم أقل لكم انها محاولة ساذجة تتكرر كل يوم لقتل السأم والضيق؟ ..[٢] » .

ومعتوق في قصة (عطية .. والبئر) ممزق بين الظن والواقع ، ولكن الواقع هنا اجمل من الظن ، فهو يظن خطأ ان ابنه عطية « مات في البئر » ــ هات . . هات .. والبقرة هي الأخرى تغمز بعينها الى البئر وهو يفتح شدقيه ليلتهم عطية الصغير . . انه لم يعد يرى فيه ميراث الجدود الحريص على المحافظة عليه .. انه ليس اكثر من شريك كان يعمل معه لسقي الفول والطماطم ولكنه . . غدر وخان .. ورماه بنظرات هي اكثر من اللوم والعتاب وأعمق من الكراهية والحقد . . ـ هكني تعملها .. تعملها فينا . . وفتح عينيه .. وتطلع في دهش الى فاطمة الجالسة بجواره على الفراش تحادث عطية الصغير .. وما انتبهت الى معتوق حتى هتفت به ــ معتوق .. عطية .. عطية

---

(١) ص ٥٤
(٢) ص ٦٩

حي ..[1]»

و (منصور) في القصة التي تحمل اسمه يعيش تناقضاً يمزقه : فهو يريد أن يزوج ابنه (محمود) « بنت الشيخ علي شيخ القبيلة .. إنه ليفخر أن يكون صهراً له .. سيقف في وجه الحاج سليمان ورمضان .. بكبرياء .. ويفعل مايشاء .. طبعاً .. لأنه صهر شيخ القبيلة . وابتسم . . لقد لقد أحسن الاختيار .. وغابت ابتسامته .. أين النقود ؟ غلة الزيتون لاتكفي ولا التمر . . آه دبالج وخلخال زوجته عيشة ، لابد أن ترضى ببيعها من أجل ابنها . ولكنها تريد أن تزوجه من بنت اختها . . واغتاظ وأقسم في حنق . . لالن تدخل بيته هذه البنت وهو على قيد الحياة ..[2]»

وسالم في قصة (الوسعاية ..) يعيش ممزقاً بين ارضاء أبيه وإرضاء رغباته . فبعد أن شج أحد رفاقه « .. وكمن يحمل ثقل الدنيا كلها انسحب سالم في خطوات مهمومة من الوسعاية وذهب الى البيت . ومع كل خطوة كان ثمة تأكيد بأن ذلك الحزام الجلدي سيلهب جسده هذه الليلة . . ودخل البيت في سكون واحساس حزين يتملكه . وتعود رؤيا الوسعاية أمام ناظريه وضباب كثيف يلف بها من كل جانب ..[3]»

وفي قصة (حكايتك . . يازمان) تعيش فاطمة ممزقاً بين ذكرى زوجها وواقع ترملها ، ينتهي بها الى الجنون « .. بقيت خالتي فاطمة حكاية .. حكاية في خاطرك يازمان .. تحملها أنت وتمضي بها بين طياتك على المدى البعيد .. خالتي فاطمة تحملها أمانة يازمان بين يديك .. والنساء والأطفال قالوا كلمتهم التي لاترد والحكم الذي لارجعة فيه : فاطمة مهبولة .. وأما الرجال فقد اضطروا الى مجاراة نسائهم ، لأن المسايرة باهية .. وعلى رأي الفقيه سليمان : خوذ

---

(١) ص ٨١
(٢) ص ٨٨
(٣) ص ١٠١

النساوين على هواهم.. تأخذ ساعة هذاهم.. وحتى الذين كانوا بوسيلة ما يستطيعون الاعتراض على رأي نسائهم قد أذعنوا اخيراً للأمر الواقع وتمتمت شفاههم في إهمال : خلاص فاطمة مهبولة .. والتصق هذا اللقب بها بأكثر من التصاق هذا الرداء البالي حول جسدها الضامر وكأنه يعز عليه أن يفارقها . . ويكفي أن تقول : فـاطمة المهبولة ، ليعرفها الجميع..[1]» .

وفي قصة ((شيء في قريتنا) يعيش الكلب تمزقاً بين صاحبه الحاج عبد الله والناس ، فقد ربطه صاحبه بسلسلة وكلفه حراسة أرزاقه ، وهو في حرصه على عدم إيذاء الاطفال الذين ينهبون الثمار يغفل عن حراسة الحمار « . . ووصلوا إليه ورأى الغضب والاهتياج من حركات يدي الحاج عبد الله ومن نبرات صوته المتهوج مما دفعه إلى الالتصاق كثيراً بجذع الشجرة وقد انبعثت في جسده قشعريرة الخوف . . ولم يمهله الحاج عبد الله كثيراً فقد انهال عليـه ضرباً بعصاه والكلب يعوي ويتلوى محاولاً الاختفاء . لم يكن يدري أن ماسمعه ليلة البارحة من حركات ووقع أقدام كانت لأشخاص .. وأن الحمار قد سرقوه . . وانـدفعت الأيدي وانتزعت العصا منه ولكنه أقسم أن لن يتركه لحظة عنده..وتقدم الى قيده المحيط برقبته وفكه وضربه بقدمه .. ودار الكلب دورتين من أثر الضربة ووقـع على الارض .. ونهض مقترباً من صاحبه وأخذ يتمسح به ويهز ذيله ويهمهم .. ثم انطلق يجري متوارياً عبر أزقة القرية ..[2]»

أما سليمان في قصة (أيام زمـان) فهو يمزق بين الماضي والحاضر « . . لم يطق السكوت فانطلق يتكلم بصوت اكثر حدة ــ اسكت ياولد .. تتكلم

---

(١) ص ١٠٦

(٢) ص ١٠٢

عن الشيلمات والمغنيات وماتعرفش تشد بندقية .. وضحكوا جميعاً مؤيدين عمي سليمان الذي طأطأ برأسه وهو يستمع الى كلمات الاعجاب – ابرز ياعمي سليمان . ورفع رأسه وهو يتكلم – احوال .. كل حاجة اتبدلت مافيش شي زي قبل .. وسكت قليلاً ثم واصل كلامه – حتى النساوين كانوا يخدموا مع الراجل في السانية والحرث والحصاد .. واليوم .. حتى خالتكم فاطمة العجوز ضربتها الرهينة ماتقدرش ترحى بالرحى .. ونهض واقفاً والتحف بعباءته ولم يهتم باصرار الحاضرين عليه بالبقاء وأخذ يشق طريقه بينهم وهو يقول – خليكم في الشيليمات .. أيام فاتت .. أيام كنا نحارب الطليان بسلاحهم ..[1]» .

(٣) ص ١٣٧

قاموس احياء الالفاظ[1]

تقديم وتحقيق وشرح

أسامة الطيبي

عرض : ظ . ع

يقول المؤلف في المقدمة : « لا أعلم أحداً سبقني الى مثل هذا التأليف[2] » . ولكنه يشير في نهاية الكتاب الى المصادر التي اعتمد عليها ، ومعظمها قد سبقه الى تصنيف المترادفات وشرحها ولا سيما « فقه اللغة » للثعالبي و « المخصص » لابن سيده.

يبتدىء المؤلف بأسماء الأسد فالصحراء ثم الجبل والقبر والطريق والداهية والسيف والنار والموت والخمر والغراب والديك والدجاجة والشمس والبغل والهدهد والحرباء والعمامة والفيل والقنفذ والضبع والكلب والفقر والنمر واللبن والذئب وخيل رسول الله ومدينة بغداد ومدينة مكة والعقاب والثعلب والسلحفاة والمطر والعنكبوت والنسر والحية والحمار والثور وحجرة اليرجوع[3] والعقرب ، وينتهي

(١) الجزء الأول – دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٦٧

(٢) ص ٧

(٣) لعلها حجرة اليربوع .

الجزء الأول بوصف النساء .

يلاحظ أن الأسماء غير مرتبة لا حسب الأنواع ولا حسب أحرف الهجاء، وكان يمكن للمؤلف كما جمع الديك والدجاجة أن يجمع الطيور والدواب والحشرات والمدن والمناطق والطرق والمساكن والأسلحة والمأكولات والمشروبات والملابس والأدوات والصفات ، كيلا ترى الحيوانات والنباتات والجمادات موزعة في أجزاء يضم كل جزء منها خليطاً من هذه الأسماء فتقل الفائدة من الاستفادة من القاموس .

وبينما نجد للحية مئة اسم — عندا تكرار بعضها مثل الحباب والعثمان — لا نجد بين هذه الأسماء كلمة « الأفعى » رغم أنها أكثرها شيوعاً ورغم أن المؤلف يشرح « الهائشة » بـ « الأفعى العظيمة » في هامش الصفحة ١٠٠ .

ولكن هذا القاموس يمتاز بشرح كل اسم من أسماء هذه المسميات ، وينفي بذلك مايظنه بعضهم من أنها مترادفات .

فالمراتج والمور والنهج والسليف والخل والنقب والعروض والمرصاد والوتيرة والنجد والصراط واللقم والمحجة واللاحب والصماخ والمبيع والوهم والنيسب والهوتة والديسق والسمت والمقرب والمقربة واللهجم والمهيطع والخانق واليسم والمدعس والعجوز والوارد والترهة والمأزم والعود والمخرف والوعث والحافظ والمخلفة والخط والشرعة والنبيء والسرب والعادي والنعل والدرس والمحنفر واللهجم والمسائب والسكة والنقيضة والشواكل والتهام والفرنع الخ ... كلها من أسماء الطريق غير أنها مختلفة في المعنى : فالمراتج هو الطريق الضيق ، والصراط هو الطريق الواضح المرتفع ، والمقرب هو الطريق المختصر ، والمخلفة طريق وراء الجبل ، والسكة الطريق الخفيف في السهل الخ . . على أن بعض القبائل اختصت باستعمال بعض الكلمات دون بعضها : فبعض القبائل العربية قالت « السكين » وبعضها قالت « المدية » ، ولكن أستاذنا زكي الأرسوزي

يرى مع ذلك فرقاً في المعنى بين الكلمتين منطلقاً من الأصوات الطبيعية .

يقول المؤلف في المقدمة : « ويحسب القارىء أن هذه الألفاظ مبتدعة حتى ليخيل الى البعض أنها مدسوسة أو أنها من نسج المؤلف [١] » . فكأنه يعتبر احياء هذه الألفاظ حفاظاً على الأصالة العربية . ولكنني أرى أن التقريب بين اللهجات العربية المحلية — في سبيل التقريب بين لغة الحديث والكتابة — لايتم الا باختصار المترادفات المتقاربة اذا كان الفرق بين معناها لايفيدنا في حياتنا الراهنة . وهذا شرط ضروري للانطلاق الى العالمية رغم المحافظة على الأصالة في سبيل متابعة موكب التقدم العلمي ومواجهة التحدي [٢] .

« قال الأرسوزي : ان العرب كانوا يضعون للأسد اسمـاً في كل وقفة من وقفاته ، فهو غضنفر حين ينفر ، وليث حين يضرب بيده ، وأسد حين يسد الغابة . أما الآن فاننا لانرى الأسد الا في قفص ، فنجد أسماءه مترادفة لانرى أي فائدة لمغناها . ويطلب الطبيب الجراح اليوم أنواعاً من المقصات ، فاذا لم يكن لكل منها اسم تعرقل عمله ومات المريض فعلينا أن نضع الأسماء لهذه المقصات كل حسب وظيفته راجعين الى عبقرية أجدادنا في تسمية الأسد حسب موقفه ، ومتمثلين التفكير الاوروبي تمثلاً واضحاً . ويجب أن تبدأ هذه الاسماء بالكسر لأن الأوائل تعود لصاحبها [٣] » .

على أن هذه الأسماء حين تفقد الفرق بين معانيها تظل لها فائدتها عند الشعراء . فربما أعوزت الشاعر قافية أو اضطرته التفعيلة الى البحث عن مرادف يناسبها ، فيلجأ الى مثل هذا القاموس يبدل الكلمات حتى تستوي التفعيلة وتأتي القافية .

---

(١) ص ٧

(٢) جاك بيرك — تعدد الحضارات ووحدتها — ترجمة اديب اللجمي — مجلة المعرفة — العدد ٧٢ دمشق — شباط « فبراير » ١٩٦٨ .

(٣) ظافر عبد الواحد — أسلوب وضع الاصطلاحات العلمية في اللغة العربية — جريدة الرأي العام — دمشق — العدد ١١٥١ الجمعة ١١ نيسان ١٩٥٨ .

مصير قارع طبل (١)

قصص للكاتب السوفييتي

أركادي غايدار

انتقاء وترجمة

هشام الدجاني

عرض : ظ . ع

نال أركادي غايدار شهرة واسعة في أواخر النصف الأول من القرن العشرين. تمتاز قصصه بالسلاسة كما يمتاز أسلوبه بالسهولة والخلو من التعقيد . وقد اختار المترجم من قصصه ثلاثاً هي : مصير قارع طبل ، مصرع السرية الرابعة ، نقطة الهدف ، وهذه هي القصص التي ضمها الكتاب . تمتاز كلها بالقوة الفنية الى جانب الروح الإنسانية . (مصير قارع طبل) تروي قصة صبي في الثانية عشرة من عمره اضطرته الظروف للانفصال عن أهله حوالي ثلاث سنوات والعيش بين اللصوص ، ولم يخل سلوكه من زلات ، ولكنه انتصر بفضل شجاعته وعزة نفسه على كل المصاعب .

---

(١) مراجعة يوسف الحلاق — وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي — دار دمشق ١٩٦٧

وتمتاز القصة بجودة العرض وفهم نفسية الطفل والتفاؤل والروح الإنسانية. فالحوادث تتلاحق بسرعة بحيث تستهوي القارىء، ولكنها بذات الوقت تبرز شخصية البطل. وهي تهدف الى تفتح الرجل الكامن في كل طفل. فبطل الرواية يمتاز بالصدق والعفوية والأمانة والثقة بغيره والشجاعة، واخيراً بخلق متين هو الذي يمكنه من الرؤية الصادقة، عندما يطلق الرصاص على رفيقيه اللذين احتضناه، وقد تأكد أن أحدهما جاسوس والثاني لص محترف. والإنسان — كما يتصوره المؤلف — نتيجة للظروف المحيطة به، ولكن هذه الظروف بدورها نتيجة لسلوكه. وباستطاعة كل إنسان أن يكفر عن ذنبه وأن يندمج من جديد في المجتمع ويسهم في تقدمه.

وتبين قصة (مصرع السرية الرابعة) ان سوء الانضباط يؤدي الى الفشل ولو كان الانسان على درجة كبيرة من الشجاعة.

وتبرز قصة (نقطة الهدف) في الأطفال روح الشجاعة وحب المغامرة، والرغبة في التعرف الى الأشياء.

والقصص الثلاث من وحي الفترة التي كتبت فيها أي مابين الحربين، فهي تبين أن الجيش الاحمر ومغامراته شيء مألوف في حياة الانسان السوفييتي، ويبدو هذا واضحاً في (نقطة الهدف).

ويبدو ان الكاتب من انصار الواقعية الاشتراكية، ولكنه يعرف كيف يستخدم هذا المذهب الأدبي لانشاء قصة بالمعنى الفني، تستهوي القارىء وتوجهه دون أن تقسره. وهو يبرز دور الجيش الأحمر الانساني في قصتي (مصير قارع طبل) و (نقطة الهدف) دون اللجوء الى اساليب الدعاوة الرخيصة، وفي صفحات قليلة قد لاتتجاوز الأربع صفحات في كل المجموعة.

يمكننا الثقة بالترجمة اذا عرفنا أن المترجم والمراجع مجازين باللغة الروسية.

وحدة العمل الفدائي الفلسطيني

(الكاتب ـ الطليعة ـ الاسبوع العربي)

عرض : هشام الدجاني

احتلت بطولات الفدائيين العرب في الآونة الأخيرة مكان الصدارة في الصحافة العربية . كما اثارت اعمال الفدائيين قلق سلطات العدو وقلق الصحافة الغربية من تصعيد هـذه الاعمال وزيادة فعاليتها . وقد اهتمت المجلات العربية بدراسة وتقويم هـذا العمل الفدائي ، ودراسة المحاولات التي جرت لتجميع وتوحيد المنظمات الفدائية الفلسطينية التي تمهد طريق الثأر والعودة .

وقبل أن نتحدث عن وحدة العمل الفدائي الفلسطيني ، لا بد أن نشير الى بداية العمل الفدائي والظروف التي احاطت بهذه البداية . ولما كان العمل الفدائي مرتبطاً اوثق الارتباط بنشاط منظمة فتح ـ جناحها العسكري ـ العاصفة ـ . فمن الضروري التنويه باهداف هذه المنظمة وأعمالها ، والظروف التي احاطت بنشأتها . وهـذا ما افردت له مجلة « الاسبوع العربي [1] » ، ريبورتاجاً مطولاً .

(١) الاسبوع العربي ـ بيروت ـ العدد ٤٥٠ ـ ٢٢ كانون الثاني ـ ١٩٦٨

سمع الناس بمنظمة فتح (حركة التحرير الفلسطينية) لأول مرة في ١ كانون الثاني ١٩٦٥ عندما نشرت بلاغها العسكري الأول عن أول غارة قامت بها في اسرائيل (ضربت منشآت تحويل نهر الاردن في عيلبون وسهل البطوف). وكان هذا البلاغ يحمل ميلاد منظمة فدائية فلسطينية سرية تعمل داخل الأرض المحتلة بعد ركود دام ستة عشر عاماً.

وتتالت بعد ذلك البلاغات العسكرية « وخلال السبعة والعشرين شهراً الأولى من عملها اصدرت فتح ٩١ بلاغاً عسكريا وقامت بـ ٣٠٠ هجوم دمرت خلالها ونسفت عشرات المنشآت الحيوية الهامة للعدو والسيارات والدبابات » (١).

ولعلنا نستطيع بعد مضي ثلاث سنوات على نشاط العاصفة أن نقوم هذه التجربة الرائدة في العمل الفدائي. لقد بنت « فتح » قيامها على اعتبارين:

١ ـ قبوع القضية الفلسطينية في ادراج الامم المتحدة واتخاذها طابع المناقشات العقيمة بينما تخطط اسرائيل للاقامة في فلسطين.

٢ ـ ضرورة قيام منظمة تأخذ زمام المبادة في العمل لتحرير فلسطين.

ومن هذين الاعتبارين يفهم أن « فتح » قد آمنت بفشل العمل السياسي، وضرورة بدء المعركة اليوم لأن الزمن في صالح العدو.

ونستطيع أن نصف نشاط « فتح » على أنه محاولة قوية وصادقة من أجل تعزيز ثقة الشعب الفلسطيني بامكان زلزلة الوجود الصهيوني، ومحاربة عوامل اليأس والانهزام بعد ركود طويل.

اما ما تهدف اليه « فتح » من عملياتها الفدائية داخل الأرض المحتلة بالنسبة لاسرائيل فقد لخصت مجلة الاسبوع العربي (٢) هذه الأهداف كما يلي:

(١) المصدر ذاته (ص ٣٥)
(٢) العدد المشار اليه ص ٣٥

١ ـ القضاء على الامن والاستقرار في اسرائيل .

٢ ـ ضعضعة الاقتصاد الاسرائيلي .

٣ ـ وقف التمويل الخارجي

٤ ـ وقف الهجرة الى اسرائيل

٥ ـ تذكير المولودين في اسرائيل بانهم ليسوا اصحاب فلسطين

٦ ـ خلق نفسية الخطر والقتال لدى ساكني الحدود في البلدان العربية المجاورة .

وظلت فتح تعمل منفردة مدة سنتين تقريباً في صمت ، وفي ظروف قاسية ، فاتحة الطريق ببطولة وفداء امام المنظمات الأخرى التي جاءت تعمل بعدها .

وتوالت بعد ذلك المنظمات الفدائية التي التقت مع «فتح» على ارض المعركة : فلسطين المحتلة . فجاءت **منظمة أبطال العودة** التي اصدرت اول بلاغاتها العسكرية في ٢٦ تشرين الاول عام ١٩٦٦ ، و**جبهة تحرير فلسطين** (ج.ت.ف) التي قامت بغارة على ديشوم في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٧ .

العمل الفدائي بعد (٥) حزيران

تصاعد العمل الفدائي في الأرض المحتلة بعد الخامس من حزيران إثر فترة صمت استمرت أكثر من شهرين . ويبدو ان فترة الصمت هذه كانت فترة استجماع قوة وإعادة تنظيم من أجل مواجهة الخصم في « وضعه » الجديد .

تقول مجلة **الاسبوع العربي**(١) : «بدأت العمليات الفدائية فجأة جنباً الى جنب مع المقاومة السلبية في جميع انحاء الضفة الغربية بحيث ان المقاومتين أعطتا بعضهما البعض المعاني المكملة الضرورية في هذه المرحلة . وقد أدى ذلك الى تصعيد عمليات المنظمات الفدائية بحيث انها بلغت في بعض الأيام معدل ثلاث عمليات في يوم واحد ... كما شهدت الأشهر الاخيرة عمليات نسف للقطارات واخراج عرباتٍ عن خط سيرها . كما ان فتح قد وسعت أعمالها بحيث شملت مؤسسات صناعية وبشرية كمصنع تجميع السيارات في الناصرة (١٩٦٧/١١/١٤) ، والهجوم على معسكرات الجيش الاسرائيلي

(١) العدد المشار اليه ص ٣٨

(١٩٦٧/١١/١٤)، وقصف ضواحي تل أبيب بمدافع الهاون (١٩٦٧/١١/٣٠).. وأخيراً وليس آخراً محاولة ضرب مطار اللد في الشهر الماضي في محاولة وصفت بأنها أعمق مسافة توغل فيها الفدائيون حتى الآن» .

ومن جديد تحملت فتح العبء الاكبر من هذه العمليات الفدائية ، وبالتالي من الخسائر في الارواح .

يقول جلال السيد في **مجلة الكاتب**(١) :

« مايحدث اليوم داخل الارض المحتلة وخارجها ينبيء بتطورات هامة في العمل الفـــدائي الفلسطيني ، ويضع القضية الفلسطينية لأول مرة في وضعها الصحيح حيث حدد الشعب الفلسطيني - منفرداً - طريق عودته الى وطنه المغتصب بالثقافه وتلاحمه مع طلائعه الثورية ... »

وتتميز فترة مابعد حزيران بتزايد عدد المنظمات الفلسطينية الفدائية واتساع نطاق عملياتها . واذا كانت فتح قد شقت السبيل بفدائيها ونضالها امام المنظمات الاخرى لتدخل الميدان، فان هذا التعدد - بالنتيجة - قد لايوصل الشعب الفلسطيني الى غايته المنشودة .وهذا التعدد قد يفتح الطريق امام المزايدات وأمام منافسة غير مرغوب فيها ، في الوقت الذي يحتاج فيه الشعب الفلسطيني ، بعد ان أعادت اليه هذه الاعمال الفـدائية بعض ثقته بنفسه وبمستقبله ، الى قيادة سياسية وعسكرية موحدة يلتف حولها ، لا الى عدة قيادات ومنظمات .

من هنا نشأت الدعوة الى توحيـــد جهود هذه المنظمات الفدائية وضمها في منظمة واحدة ذات أهداف واحـــدة وخطط عمل واحدة .

وحدة العمل الفلسطيني :

لقد كان من الطبيعي ان تتولى منظمة التحرير الفلسطينية ، المنبثقة عن مؤتمر القمة الأول ، مهمة توحيد هذه المنظمات

---

(١) مجلة الكاتب - القاهرة - العدد ٨٣ (ص ٥٥) - شباط - ٩٦٨

او توجيهها التوجيه السياسي على الأقل. ولكن المنظمة كانت عاجزة عن هذه المهمة بسبب الظروف العربية التي اوجدت هذه المنظمة، تلك الظروف الاصطناعية غير الطبيعية. كما ان سقوط المنظمة في ارهاصات الخلافات العربية قد انعكس على اسلوب عملها؛ فلم تستطع ان تخطو خطوات جدية حقيقية في سبيل ضم المنظمات الفلسطينية او تنسيق العمل بينها. وبقيت هذه المنظمة شكلاً بدون مضمون.

وتداعت بعد ذلك هذه المنظمات الى اجتماعات تعقد بينها لتحقيق هدف التضامن ووحدة العمل. وفي كانون الثاني عام ١٩٦٦ عقد اجتماع في بيروت بين منظمة التحرير وخمس منظمات فلسطينية في محاولة للتوحيد. وتخلفت «فتح» عن هذا الاجتماع لأن «فتح» كانت تؤمن بأن اللقاء يتم على أرض المعركة وان العمل هو طريق الوحدة. وهي ترى دوماً ان قيادة الشعب الفلسطيني يجب ان تكون بيد هذا الشعب بعيداً عن المنازعات السياسية في العالم العربي. والواقع أن فتح تتميز بحساسية خاصة في هذا المجال. وهذا ما دعا مندوب الاسبوع العربي ان يسأل احد المسؤولين في منظمة فتح في التحقيق الصحفي الذي أجراه معه في القاعدة السرية للمنظمة هذا السؤال(١): يلاحظ ان ثمة حساسية غير عادية في اصراركم على ذاتية العمل الفلسطيني واستقلاليته. وكان الجواب: «كانت تجارب المنظمات الفلسطينية الاخرى، وخاصة منظمة التحرير، بالغة التعبير بالنسبة لنا. فالمنظمات المتصقة بالاحزاب او بحكومات تتوقف عن العمل عندما يتوقف الدعم الخارجي. لقد أنشأت منظمة التحرير مثلاً «أبطال العودة» ولديها في الوقت نفسه جيش التحرير. وفي اعتقادنا ان فشل المنظمة ونجاح العاصفة مبدئياً حوّل الجماهير الفلسطينية نحو من يعمل ... لقد سبق وطالبنا بتحقيق الوحدة الوطنية فعلاً عن

(١) المصدر نفسه — ص ٥٢.

طريق اصلاح القيادة السياسية لمنظمة التحرير. فالشعب الفلسطيني بأكثريته خارج التنظيمات القائمة. ونحن نرى ان التصحيح يجب ان يتناول كل أجهزة المنظمة وليس رأسها فقط».

عقد اجتماع بيروت الذي اشرنا اليه، وحضره ممثلو التنظيم الفلسطيني في كل من حزب البعث وحركة القوميين العرب، كما حضره ممثلون عن جبهة التحرير الفلسطينية والتنظيم الثوري الفلسطيني والمكتب السياسي للقوى الثورية الفسطينية. ولم تسفر تلك الاجتماعات المتتالية عن اية نتيجة ايجابية.

وبعد نكسة حزيران الاليمة، وبعد ان اصبحت أراضي فلسطين كلها تحت السيطرة الاسرائيلية كان لابد ان يعاد طرح شعار توحيد المنظمات الفلسطينية وتنسيق اعمالها؛ خاصة وان رفع شعار المقاومة لم يعد موضع خلاف بين اي من هذه المنظمات، وبعد ان تعرت منظمة التحرير واثبتت فشلها. وإن كان بعضهم مازال يعتقد بأن المنظمة تستطيع ان تلعب دوراً هاماً في القضية الفلسطينية اذا ما تخلصت من اسلوبها ومنهجها وموقفها من المنظمات الاخرى [1].

وفي الفترة الواقعة بين ١٧ و ١٩ كانون الثاني ١٩٦٨ عقد في القاهرة مؤتمر للمنظمات الفلسطينية العاملة في الارض المحتلة لبحث وحدة اداة الثورة الفلسطينية. وقد التقى في هذا المؤتمر تحت هذا الشعار ممثلو ثماني منظمات فدائية فلسطينية هي: منظمة فتح ـ التي قامت هي هذه المرة بالمبادرة بالدعوة الى هذا المؤتمر ـ. جبهة تحرير فلسطين «ج. ت. ف»، الهيئة العاملة لدعم الثورة، طلائع حرب التحرير الشعبية، جبهة ثوار فلسطين، جبهة التحرير الشعبية الفلسطينية، منظمة طلائع الفداء، منظمة الشباب الثوري الفلسطيني.

واتسمت هذه الاجتماعات بطابع

(١) راجع مقال الاستاذ جلال السيد ـ الكاتب ص (٦٢).

السرية المطلقة . **وكان اهم ماصدر عن هذه الاجتماعات «ميثاق العمل الوطني» وقرارات تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني** . وقد اشارت مجلة الطليعة (١) الى الاسس التي يرتكز عليها ميثاق العمل الوطني . ومن اهم هذه الاسس :

١ ـ اعتبار المرحلة الحالية مرحلة الوحدة الوطنية بين مختلف القوى العاملة، وان اللقاء الاصيل بين هذه القوى يتم من خلال المعركة والعمل المسلح .

٢ ـ الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد للتحرير : والشعب الفلسطيني هو الطليعة والاساس ، مع اعتبار الكفاح المسلح امرا إستراتيجياً لاتكتيكياً .

٣ ـ رفض كل الحلول السياسية كبديل عن تصفية الكيان الصهيوني المحتل ، ورفض كل المشاريع الرامية الى تصفية القضية .

٤ ـ علاقات قيادة الكفاح المسلح مع الدول العربية الرسمية تهدف الى تطوير الجوانب الايجابية في مواقف هذه الدول بشرط الا يتأثر بذلك الكفاح المسلح واستمراره وتصاعده .

٥ ـ العمل على ابراز الشخصية الفلسطينية بمحتواها النضالي الثوري في الحقل الدولي .

ومن استعراضنا لاسس ميثاق العمل الوطني هذه نجد تطابقاً وتوافقاً بينها وبين منطلقات منظمة فتح الايديولوجية والسياسية . الامر الذي يدلنا على مدى قوة تأثير الخط الذي انتهجته منظمة فتح وعلى استقطاب هذا الخط لعديد من المنظمات الفدائية الاخرى .

ومن الجدير ان نذكر ان المؤتمر اصدر كذلك قراراً بتشكيل مجلس عسكري للمنظمات الفدائية مهمته الاشراف على الشؤون العسكرية وتنسيق مخططات العمل . كما اصدر المؤتمر قراراً بان تتوحد مرحلياً الفرق العسكرية

---

(١) الطليعة ـ القاهرة ـ العدد ٢ شباط (فبراير) ـ ١٩٦٨

التابعة للمنظمات المشتركة في المؤتمر في اطار ٣ قوات رئيسية هي :

قوات العاصفة - قوات الصاعقة - فرقة خالد بن الوليد . وهذه الخطوات مقدمة لتوحيد كل الفرق الفدائية داخل تنظيم واحد .

والخطوة التالية لوحدة المنظمات الفلسطينية هو المجلس الوطني الفلسطيني الذي سيمثل جميع المنظمات العاملة .

وسيكون من مسؤوليات هذا المجلس القادم وضع خطة عمل لتنسيق جهود المنظمات العاملة في الحقل الفدائي . والايام القليلة المقبلة - كما تتوقع مجلة الطليعة (١) - ستشهد تطورات اساسية في مجال العمل الوطني الفلسطيني ، وستحسم بصفة نهائية موضوع وحدة الثورة الفلسطينية الذي يعد الآن المطلب الاساسي للجماهير الفلسطينية .

---

(١) المصدر ذاته ص ١١٣

فهرس عام